جدل مراتب القوى

يجمع القرآن الكريم في أكثر من موقع مراتب التقوى معا في عدد من الآيات. فعلى سبيل المثال قال تعالى :" يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون . وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ..." [132] تجمع هذه الآيـــة التقوى الأولى وهي الشعائر من خلال أمر الركوع والسجود ، والتقوى الاجتماعية من خلال أمر فعل الخير ، والتقوى الاستنهاضية من خلال فعل الجهاد . أنه أمـــر صادر للمؤمنين جميعا لكن المسلم يحاسب عليه كشخص حتى لو فشـــلت جماعـــة المسلمين أو مجموعهم في التنفيذ.

الإيمان متطلب مسلّم به لأن الخطاب للمسلمين . الشعائر تعقـــب الإيمـــان وهـــي مطلوبة من كل مسلم ، وممارستها ليست انعزالية على الرغم من أنها من الممكـــن أن تمارس على هذا النمط . ولهذا اعتبرت الممارسة مع الجماعة ذات أفضـــلية . إنها ممارسة غير صعبة وغير مثقلة من الناحية المادية ، وهـــي تعتبـــر أرضـــية إيمانية للانطلاق نحو التعامل الحسن مع الناس . فهي لا تمارس لإشباع ذاتي وإنما لانطلاق عملي خيّر ينعكس إيجابيا على المسلمين . وإذا عجز المرء عن ترجمـــة عاداته إلى سلوك خير فإنه يكون قد أفرغ هذه الشعائر من مغزاها الاجتمـــاعي أو انعكاسها العام .

حتى يحقق المسلم إسلامه بدرجة أسمى وأرقى يزاوج الشعائر بالتقوى الاجتماعيـــة التي تعتبر آلية لتحقيق فوز شخصي يوم القيامة . وفي هذا ينقل المسلم نشاطه إلى العمل الذي ينعكس خيرا على الآخرين ، أي إلى العمل العام الذي قد يكون مبرمجا وقد يكون حسب التقدير الشخصي . وبهذا ينقل المسلم علاقته بمن يحيطون به نقلة نوعية نحو العمل الجماعي . فحتى تتحقق مصلحته الشخصية وهي الفوز العظـــيم

يوم القيامة يصبح العمل العام محور نشاطه ، ويرى في العـــالم خـــارج ذاتـــه أداة لتحقيق الذاتي . وعلى الأقل ، حتى هذه النقطة ، تبقى التقوى الاجتماعية من وجهة النظر الذاتية أداة للذات .

لكن المسلم ينتقل إلى درجة أعلى في التفاعل بين الذاتي والموضوعي أو الـــداخلي والخارجي في القوى الاستنهاضية . عمله الاستنهاضي هو عبارة عن طاعة لأوامر الله تقوده أيضا إلى الفوز العظيم وهو جزء من عمل الصالحات . وهكذا تبدو القوى الاستنهاضية عملا خارج الذات من أجل الذات . لكن ما الذي يمكـــن أن يحصـــل لتحقيق الذات أو تحقيق الهدف الذاتي إذا لم يكن هناك أمة إســـلامية قـــادرة علـــى الحفاظ على ذاتها والتقدم ؟ هذا ما سنراه عند الحديث عن الأمة . لكن الآن تكفـــي الإشارة إلى أنه من زاوية الشخصي هناك تصاعد في الجهود الذاتية في اســـتخدام العالم خارج الذات من أجل تحقيق أعلى مرتبة من التقوى . أي أن المسلم يعمل في الحقل العام الذي يفيد الناس على الأقل إشباعا لرغبته المتواكبة مع إيمانـــه والتـــي تقربه إلى الله .

بالطبع يختلف الأشخاص في قدراتهم في تحقيق المراتب المختلفة ، لكن هذه تبقـــى فروقات بين الأشخاص ولا علاقة لها في المبدأ.

مراتب التقوى هذه عبارة عن تعاليم إلهية من أجل تهذيب الإنسان . وفي هـــذا مـــا ينسجم مع ما وصف الإنسان به والذي أشرت إليه سابقا . لو لم يكن الإنسان بتلـــك الصفات ولو كانت صفاته حميدة وخيرة لما لزمـــت التعـــاليم الســـماوية الخاصـــة بالتقوى، ولكان الإنسان يتصرف حسب قواعد التقوى والفلاح بالطبيعة . وحيث أن الإنسان قد وهب العقل وجعل الله له السمع والأبصار والأفئدة فإنه خرج من المملكة الحيوانية التي فطرت على طبيعة معينة رتيبة السلوك ، وحيث أنه أعطي القـــدرة

التمييزية والأدوات التجريبية فإنه بذلك أعطي حرية الاختيار وكان عن عمله مسؤولا. وعلى ذلك يتم الحكم على الإنسان. وبقدر إيمانه وبراعته الجدلية في تطبيق التعاليم السماوية يكون قد ارتقى في سلم التقوى. وقد لخصت هذه الجدلية في سورة المعارج :" إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا. إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون. والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم. والذين يصدقون بيوم الدين ..." الإنسان بالخلق يجنح نحو الزيغ أو الطغيان لكن نفسه تلطف الأمور من خلال تفاعلها مع المحيط والبيئة. أما الإيمان الذي تعبر عنه الصلاة يخرج المرء من دائرة البدائية ويقوده إلى الرقي بنشاطاته لتشمل النواحي الاجتماعية ومن ثم الأعمال العامة الهادفة.

الصراط المستقيم

تكامل مراتب القوى يبرز فيما وصفه الله بالصراط المستقيم. لقد ورد تعبير الصراط المستقيم في عدد من المواقع في القرآن الكريم أبرزها في سورة الفاتحة التي يرددها المسلم على الأقل سبع عشرة مرة يوميا قائلا :" اهدنا الصراط المستقيم" وقد عرف القرآن الكريم هذا الصراط بالآيات التالية :

" قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ." (133)

عبارة صراطي مستقيما هنا لا تعتبر نكرة وإنما معرفة ولا تعامل على أنها مجرد صراط مستقيم يشكل أحد أنواع الصراط المستقيم أو فرعا منه. وردت عبارة صراط مستقيم في القرآن عدة مرات بصيغتها غير المعرفة ، ووردت الصراط المستقيم هكذا معرفة كما هو الحال في الفاتحة. هنا وردت بصيغة النكرة لكنها معرفة بما قبلها.

هذا هو الصراط المستقيم الذي جمع فيه الله سبحانه التعاليم التي تشكل أمهات السلوك الإنساني الاجتماعي والعام. تراوحت الأوامر من تحريم الفواحش إلى إقامة العدل ، ومن التحرر من العبودية إلى الاعتراف بمحدودية وسع النفس الإنسانية ، ومن البر بالوالدين إلى الحرص على مصالح اليتيم ، ومن تحريم الشرك إلى الوفاء بعهد الله. وحرصت الآيات على مخاطبة العقل الإنساني من خلال التعقل والتذكر ، وشملت الجميع في تعبير التقوى. ومن الواضح التحديد هنا بالأمور غير الشخصية والتي تنعكس على الوضع العام والعلاقات المختلفة والمتداخلة في الأمة الإسلامية. لا يعني هذا أن هناك إغفالا للمناسك أو العقيدة لأنهما يشكلان أرضية إيمانية لا يستطيع أن ينطلق المسلم في حياته العملية بدونهما. بحكم كونه مسلما فهو ينطلق أصلا من القاعدة الإيمانية الإسلامية التي تقوم على التوحيد وما ينبثق عنها من إيمان بالملائكة والرسل والأنبياء والكتب.

أي أن الصراط المستقيم عبارة عن النسيج العام الذي يشمل كل مراتب التقوى، بل هو الجدل الذي يجمع مراتب التقوى لتعمل جميعها معا بحيث يتحد الذاتي والموضوعي في آن واحد، ويرتقي الذاتي بوجوده إلى الوجود الواحد الذي يشكل مصدر كل الوجود. وبهذا لا يكون الذاتي مجرد قطعة موجودة تأخذ حيزها كوجود، وإنما يتطور وعيه بحيث يصبح مدركاً أنه الوجود الذي يعكس الانسجام العام الذي

يميز الوجود ككل. والوعي هنا ليس وعيا نظريا وإنما ناجم عن تفاعل العنصر الإيماني مع الواقع العملي الذي يحياه الإنسان في محاولته لتطويعه ضمن إطار مراتب التقوى فيتحول إلى واقع منسجم مع الوجود الذي هو أصلاً منبثق عن الكامل الذي هو الله. فكلما ارتقى الإنسان بمراتبه ارتقى تفاعل طاقاته مع الواقع وتركز نحو توجيهه بانسجام مع الخلق الإنساني المتناغم أساساً مع الكون. ارتقاء التفاعل يشحذ قوى الإنسان خاصة العقلية والفكرية منها، وكذلك الطاقات النفسية الأخرى كتلقي الأحاسيس والعواطف والوجدان، مما يجعل من هذه ضمن التناول العقلي الإنساني فيصبح معها الإنسان في انسجام داخلي مطلق ضمن حيزه الإنساني. كلما تفاعل الإنسان مع محيطه تعمقت لديه المعرفة والتجربة مما يؤهله لعمل أكثر نجاحاً وفعالية. ولذا جمع سبحانه الإيمان والعمل الصالح معاً. الإيمان المتعمق يقود إلى تصاعد بوتيرة العمل الصالح، والعمل الصالح ينعكس على صلابة الإيمان بسبب ما ينجم عنه من إنجازات. العلاقة متبادلة وتتعمق في الممارسات العملية التطبيقية.

الصراط المستقيم عبارة عن وصف لإنسان تتدفق طاقاته بتوازن بحيث لا تحجب طاقة أخرى، ولا تتغلب طاقة على أخرى، ولا تزيغ واحدة عن ثانية ولا تطغى عليها. أنه التوازن الشامل بين مختلف الطاقات في تفاعلها الداخلي ومع العالم خارج الإنسان، بحيث يعكس الإنسان في داخله وحدة الوجود فيزول التناقض بين ما هو خارجي وداخلي، بين ما هو نسبي ومطلق، ويصبح جدل الإنسان جدلاً انسجامياً بحيث تأخذ أفعاله وأعماله التي تعبر عن مختلف قواه موقعها الصحيح بدون نشوز أو اعوجاج. فكما هي حركة الجرم السماوي تمارس ذاتها بانسجام مع حركة الأجرام الأخرى ضمن قوانين كونية يمارس الإنسان حركته ونشاطه ضمن بعده الإنساني الكوني الذي لا يصطدم ولا يعاق. ضمن هذا يحقق الإنسان حريته وينطلق في عمله البناء الذي ينعكس إيجاباً على المسلم وعلى الأمة ككل وعلى من

يرتضي العيش ضمن الأمة الإسلامية. وخير هذه الحرية ينعكس بالتالي على الأمم الأخرى لأن الأمة الإسلامية لا تحجب إنجازاتها الإنسانية عن الآخرين.

الهوامش

1- البقرة ، 117.
2- الأنعام ، 101 .
3- سبأ ، 28.
4- البقرة ، 275 .
5- الليل ، 5-10 .
6- الأعراف ، 158 .
7- المدثر ، 38 .
8- النجم ، 38 - 41 .
9- الأنعام ، 164 . وانظر أيضا الإسراء ، 15 . فاطر ، 18 . الزمر ، 17.
10- البقرة ، 286 .
11- النساء ، 111 .
12- الإسراء ، 13 - 14 .
13- النجم ، 39 - 40 .
14- الأنعام ، 148 .
15- النحل ، 35 .
16- سورة الإخلاص .
17- النساء ، 104 .
18- محمد ، 35 .
19- آل عمران ، 145 .
20- الرعد ، 26 .
21- العنكبوت ، 60 .
22- الملك ، 15 .

23- التوبة ، 105 .

24- آل عمران ، 144 .

25- آل عمران ، 128 . هناك عدة اجتهادات حول هذه الآية منها ما يقول أنها تعني أن الله سبحانه يخاطب الرسول عليه السلام بأن الأمر كله لله ، ومنها ما يقول بأن الله سبحانه يخاطب الرسول قائلا بأنه لا حكم له على عبـــاده إلا مـــا أمر به . وإجمالا تدور الاجتهادات حول هيمنة الله على الخلق . أنظر **تفســـير ابن كثير.**

26- الجن ، 20 - 22 .

27- الزخرف ، 59 .

28- سيد قطب ، **العدالة الاجتماعية في الإسلام** ، ص ص 40 - 43 .

29- **رياض الصالحين** ، ص 240 .

30- **رياض الصالحين** ، ص 244 . وهو متفق عليه .

31- الكهف ، 29 .

32- البقرة ، 256 .

33- النازعات ، 37 - 41 .

34- الزلزلة 7 - 8 .

35- كارل ماركس ، **رأس المال** ، ج 1 ، ص ص 228 - 241 .

36- جورج سباين، **تطور الفكر السياسي**، الكتاب الرابع، ص ص 846 -850.

37- الحج ، 6 .

38- الحج ، 62 .

39- يونس ، 32 .

40- طه ، 114 .

41- الكهف ، 44 .

42- الأنعام ، 62 .

43- أبو الأعلى المودودي ، **المصطلحات الأربعة في القرآن** ، ص 23 .
44- البقرة ، 176 .
45- البقرة ، 252 .
46- آل عمران ، 3 .
47- النحل ، 102 .
48- الإسراء ، 105 .
49- سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، المجلد الأول ، ص 224 .
50- م س ، ص 541 .
51- النساء ، 105 .
52- م س ، ص 516 .
53- **مختصر تفسير ابن كثير** ، المجلد الأول ، ص 153 .
54- **م س** ، ص 262 .
55- **م س** ، ص 433 .
56- **م س** ، المجلد الثاني ، ص 404 .
57- النور ، 25 .
58- الأنعام ، 5 .
59- البقرة ، 91 .
60- الأنفال ، 32 .
61- البقرة ، 42 .
62- الأحزاب ، 4 .
63- البقرة ، 146 .
64- الكهف ، 56 .
65- الأنبياء ، 18 .
66- يونس ، 82 .

67- الشورى ، 24 .
68- الإسراء ، 26 .
69- المعارج ، 23 - 25 .
70- الأعراف ، 33 .
71- الإخلاص .
72- الكهف ، 110 .
73- القصص ، 88 .
74- الحديد ، 3 .
75- البقرة ، 177 .
76- آل عمران ، 191 .
77- الأنعام ، 73 .
78- النحل ، 3 .
79- العلق ، 1 - 5 .
80- الغاشيه ، 17 - 20 .
81- الطارق ، 5 - 6 .
82- فاطر ، 28 .
83- النساء ، 59 .
84- الأحزاب ، 36 .
85- الزخرف ، 43 - 44 .
86- الأنعام ، 153 .
87- المائدة ، 105 .
88- صبحي الصالح ، **الإسلام والمجتمع العصري** ، ص 244 .
89- الرعد ، 20 .
90- الأحزاب ، 15 .

91- التوبة ، 111 .

92- البقرة ، 25 .

93- الرعد ، 29 .

94- الكهف ، 107 .

95- البقرة ، 48 .

96- البقرة ، 281 .

97- النساء ، 1 .

98- النحل ، 111 .

99- الأنفال ، 69 .

100- النساء ، 128 .

101- آل عمران ، 28 .

102- سبأ ، 28 .

103- النساء ، 124 .

104- النحل ، 97 .

105- **رياض الصالحين** ، ص 78 .

106- **صحيح البخاري** .

107- حول أحاديث الخُلُق الحسن راجع محمد الغزالي ، **خُلُق المسلم** ، ص ص 12-18 .

108- محمد البهي ، **الدين والحضارة الإنسانية** ، ص ص 91 - 95 .

109- آل عمران ، 117 .

110- الأنفال ، 27 .

111- الحجرات ، 6 .

112- البقرة ، 264 .

113- النساء ، 19 .

114- الإسراء ، 37.
115- الإسراء ، 35.
116- الأعراف ، 32.
117- النحل ، 14.
118- الأعراف ، 31.
119- المائدة ، 8.
120- الأنفال ، 60.
121- التوبة ، 41.
122- الأعراف ، 176.
123- آل عمران ، 118.
124- يونس ، 101.
125- العنكبوت ، 20.
126- الزمر ، 42.
127- الأنعام ، 67.
128- فاطر ، 28.
129- العنكبوت ، 49.
130- آل عمران ، 7.
131- المجادلة ، 11.
132- الحج ، 77 - 78.
133- الأنعام ، 151 - 153.

الفصل الرابع

الأمة الإسلامية

بداية من المهم الإشارة إلى أن هناك من يفهم كلمة أمة على أنها قوم أو شـــعب أو حتى مجموعة من الناس ، لكن هذا لا يستند على تدقيق جيد لمـــا هـــو وارد فـــي الإسلام. ورد في القرآن الكريم عدد من التعبيرات التي توحي بشمولها على أعداد

من الناس مثل قوم وطائفة وفريق وفئة . هذه التعبيرات لا تفيد ذات المعنى ولا يجوز استعمالها بصورة متبادلة . أما تحديد معانيها فيحتاج إلى أبحاث واجتهادات نحن لسنا بصددها الآن . ما يهم موضوعنا هنا هو عدم الخلط وعدم تجاوز دقة التعبير القرآني وعدم التهاون في استعمال الكلمات المختلفة وكأنها تحمل ذات المدلول .

ربما يتأثر بعض الكتاب المسلمين بالفكر الغربي فيظنون أن كلمة أمة عبارة عن الترجمة الصحيحة لكلمة Nation في اللغة الإنكليزية . هذا التوجه أيضا يخلو من الدقة فضلا عن أنه يقع في أغلوطة الاقتران التي تقرن معنى قرآنيا بتطور لغوي مرتبط بتطور سياسي في مرحلة تاريخية معينة . الدراسة المقارنة جائزة وهي إحدى الوسائل العلمية في فهم الحقيقة أو التعرف عليها ، لكن الاقتران أو الإحلال يحتاج إلى تريث وتفكير طويل . علما أن كلمة Nation قد تترجم على أنها قوم أو أمة إذا أردنا تجاوز البعد الفلسفي في تحري الدقة . بمعنى أن المفردات العربية أكثر تنوعا في هذا المجال وبالتالي أكثر دقة . فإذا وقفنا عند دقة المصطلح فإنه من المتوقع أن تسترشد اللغة الإنكليزية باللغة العربية . وحقيقة أن الناطقين بالإنكليزية كانوا أكثر دقة من الناطقين بالعربية بحيث أنهم نقلوا تعبير أمة كما هو ونراه موجودا في أغلب مراجعهم Umma .

هذا ويبدو أن استعمال كلمة Nation غالباً ما يعني قوما أو قومية حيث أن استعمالها في العديد من المؤلفات الإنكليزية يرتبط بالانحدار العرقي أو رابطة الدم أو السلالة. مثلاً يقول أحد المؤلفين أن الأمة عبارة عن مجتمع بشري قائم على حقيقة الولادة والسلالة مع ما يصحب ذلك من معاني أخلاقية.[1] وقد ترسخ هذا التعريف خلال السنين التي شهدت إقامة الدول والتي تسمى Nation-States والتي تترجم عربياً بدولة القومية.

تعريف

تتعدد الاجتهادات حول تعريف الأمة وتتنوع، ولكنها تعيد الكلمة إلى الفعل الماضي أمّ. يقول صاحب **لسان العرب** أن الأمة هي فن القصد. فإذا قيل أممت إليه فالمعنى قصدت إليه، مستنداً في ذلك على قوله تعالى :" ولا آمين البيت الحرام" ، أي قاصدين البيت الحرام. أما **المنجد** فيقول أن أممته تعني قصدته، وأممت الرجل جعلته أمامي والأمام نقيض الوراء. وأم القوم تعني تقدمهم وكان إماماً. والأمة هي الطريقة، وقد تكون الحين أو القامة. أما الفيروز أبادي فيقول أن الأمة هي الرجل الجامع للخير. الأم والحين والقامة، وقد تكون الوجه.

هذا ويتحدث عدد من المؤلفين حول معنى الأمة ويبدو أن أغلبهم يحاولون إعطاء الكلمة عدة معاني منسجمة إلى حد كبير مع فهمهم للآيات القرآنية التي ترد فيها كلمة أمة.[2] ولا نجد في الكتابات الإسلامية تعريفاً جامعاً مانعا لكلمة أمة غير مرتبط بظروف معينة.

أما هذا البحث فيتبنى التعريف التالي: الأمة هي من كانت ذات منطلق واحد ومنهج واحد وقصد واضح. وقد قد تكون حيواناً أو قطيعاً فيكون منطلقها طبيعياً وكذلك منهجها وقصدها، وقد يكون إنسانا أو جماعة فيكون منطلقها إيمانيا أو اجتماعياً وكذلك منهجها وقصدها. يرتكز هذا التعريف إلى أن التعريفات اللغوية المختلفة لكلمة أمة تشمل قصداً وتوجها إلى الأمام. وأمّ لا تشمل في معناها الصدفة وإنما تعمد التوجه أو القصد. أي أنها تفترض وعياً مسبقاً أو تخطيطاً مسبقاً بالتوجه إلى الأمام أو بالقصد. وبما أنها كذلك فهي تفترض أن الواعي بقصده أو إمامته أو وجهته قد وضع مسبقاً طريقاً للوصول إلى قصده، وحيث أنه قاصد ويعرف وسيلته أو منهجه للوصول فهو يعرف لماذا يفعل ذلك، أي يدرك منطلقه. أما بالنسبة

للحيوان فإن المنطلق والمنهاج والقصد قد حددت مسبقاً من الخالق وكانت جزءاً من التركيب الخلقي الجسماني للحيوان. والخالق قد خلق كل نوع من الخلق حسب قواعد تأصلت طبيعياً، والله هو العليم.

تعبير الأمة مرتبط بقواعد وأسس تحدد طريقة الحياة وليست مرتبطة بقوم أو شعب أو قبيلة. والأمة هي التي تستند في حياتها على تعاليم ومبادئ واضحة. هكذا يمكن أن يفهم المتبصر بالآيات القرآنية الخاصة بكلمة أمة. فمثلاً تنص إحدى الآيات: "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا ...."[3] واضح من الآية أن الأمة ليست من الذرية، أي أنها ليست امتداداً وراثياً وإنما تقوم على تغيير (وذلك بفعل الجعل) نحو منهج حياة وهو الإسلام وما يصاحبه من شعائر دينية. وهذا ما أكدته الآية الكريمة: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.... "[4] بمعنى ان الأمة هنا مرتبطة بمبادئ وقيم وليس بعصبية قبلية أو سلالة، وهي من الممكن أن تكون جزءاً من مجتمع إنساني. وقد تكون جزءاً من قوم وذلك حسب الآية: " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون. "[5] الأمة حسب هذه الآية جزء من القوم لكنها لا تقوم في نشاطها الحياتي على أسس قومية وإنما على أسس الحق والعدل والتي تعني عدم التمييز بين قوم وقوم على أساس الوراثة أو العصبية القومية. ونظراً لذلك، فإن الأمة تعني التمسك بمنهج حياتي يقوم على مبادئ وبالتالي قد تكون عدداً من الناس أو شخصاً واحداً. ورد في الكتاب: " إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين."[6]

الأمة ليست بالضرورة متمسكة بمبادئ وقيم خيرة، أو أنها متمسكة بشرع الله أو بالدين الإسلامي. فقد يتعارض منهجها مع ما أوحي به إلى الأنبياء. وقد تكون شريعتها مختلفة تماماً. الأمم تختلف في شرائعها حسب الآية: "وأنزلنا إليك الكتاب

بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنــزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولــو شــاء الله لجعلكم أمة واحدة ... "[7] ليس هذا فقط، بل أن بعض الأمم ضــالة، إذ ورد فــي النص: " قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النــار. كلمــا دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخــراهم لأولاهــم ربنــا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قل لكل ضعف ولكــن لا تعلمــون"[8] وقال تعالى : "وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك .... "[9] وقال أيضاً: "وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما .... "[10] تشير هذه الآية الأخيــرة إلى ان القوم أو القبيلة قد تكون أمة ولكن عندما تسير حياتها بناء على شــرائع أو منهاج وليس بناء على عادات قبلية عصبية متوارثة.

إذا كان هناك عنصر وراثي في تحديد الأمة فهو الجنس فقط. أي أن الأمة تتكــون من آحاد جنس واحد ولا تقاطع بين الأجناس في تشــكيل الأمــة. أي أن الأمــة لا تتشكل من أناس وفيلة معاً في آن واحد، ولا من إنس وجن معاً. هناك أمــة مــن الإنس وأمة أخرى مختلفة من الجن، وثالثة من الأسود أو طيور اللقلق، الخ. فحسب القرآن الكريم قد تكون الأمة مجتمعاً حيوانياً حيث تقول الآية : "وما من دابة فــي الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء ثــم إلى ربهم يحشرون".[11]

يشير هذا العرض لفكرة الأمة الواردة في القرآن أن الأمة في وحدة منطلق ووحدة منهاج وتوجه. إنها لا تقوم على رابطة قرابة أو دم أو على أسس عضوية. أي ان قيام الأمة بالعمل معاً لا يستند على تلقائية عضوية وإنما على قناعة بمبادئ وقــيم وأسس معينة تحدد سير الإنسان في حياته العملية. تنبثق عن هذه القناعــة وحــدة العمل في سبيل تحقيق أهداف معينة. للأمة غير المسلمة أو الكافرة أهدافها وتملــك

من القيم التي تحدد سلوكها للوصول إلى مقاصدها، وللأمة المسلمة مقاصد أخـــرى يتم الوصول إليها بقيم ومبادئ مغايرة. وإذا جاز أن نستبدل كلمة قناعة بكلمة إيمان (وأعتقد أن الجواز قائم لأن القناعة عبارة عن تأكيد لما يستلهم الإنسان أنه الحقيقـــة أو يتبين أنه كذلك) فإنه بالإمكان القول بأن الأمة تتوحد جهود أبنائهـــا بالإيمـــان، فتعمل وكأنها وحدة متكاملة.

الأمة الإسلامية

يؤكد القرآن الكريم وحدة أمة المسلمين وذلك بالقول: "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون." [12] ومن خصائص هذه الأمة أنها "كنتم خير أمة أخرجت للنـــاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ...." [13] وهذه خاصية تعبـــر عن نتيجة مشمولة أصلاً بأحكام الشريعة الإسلامية. بما أن الشريعة الإسلامية إلهية فإنها تعبر عن حقائق مطلقة سواء استوعبنا هذه الحقائق أو لم نستوعبها. افتـــراض الإطلاق هذا صحيح بالنسبة للمؤمن لأن التسليم بوجود إله يعنـــي ضـــمناً التســـليم بقدرته المطلقة. التشريعات الاجتماعية هي جزء من الشريعة الإسلامية وهي تعبر عن حقيقة ما يجب أن يكون عليه السلوك الإنساني وذلك حسب ما أراد الله لـــه أن يكون. وهل هناك أمة يمكن أن تكون أكثر خيراً، أو خيّرة أكثر من الأمة التي تعبر عن الحقيقة ؟ خير الأمة الإسلامية يكتمل باتباع الأوامر الإلهية الداعية إلى القيـــام بالأعمال الصالحة والدعوة إلى القيام بها، والابتعاد عن المنكرات والـــدعوة إلـــى اجتنابها. وقد أوضح رسول الله عليه السلام : "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً". [14]

الأمة الإسلامية هي أمة وسطاً تتصف بالاعتدال وتتحلى بالفضيلة. الوسطية هنا لا تعني تقلب الموقف والخلط بين المبادئ من أجل تحقيق مصلحة آنية، وإنما تعني الاعتدال القائم على الحق. والاعتدال لا يعني التفريط أو الاعتداء على حقوق الآخرين. فحسب الآية الكريمة: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .... "[15] الشاهد الوسط على الناس هو العادل، وأمة المسلمين أمة عدل لأنها تحكم حسب شريعة الله، والرسول عليه السلام أيضاً عادل وهو شاهد على أمة المسلمين. العادل هو الذي يتصرف ويحكم حسب الأسس التي تضعها الشريعة. فالوسطية أو الاعتدال هي مثلاً فضيلة الشجاعة التي تتوسط طرفين هما الجبن والتهور، وهي أيضاً إشباع حاجة الجسم من الطعام دون تخمة ودون جوع، وهي أيضاً فضيلة الكرم التي تتوسط البخل والتبذير. تنص الآية الكريمة : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً". [16] وقال تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان..."[17] وقال : "... وأقسطوا إن الله يحب المقسطين" [18] وعن رسول الله أنه قال : " إن المقسطين عند الله على منابر من نور : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا "[19] وقال سبحانه : "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون" [20].

تقيم الأمة الإسلامية العدل ومقصدها هو تطبيق الشريعة الإسلامية التي تحوي العدل في تعاليمها، وبما أنها ذات منطلق ومنهاج فان الإنسان المسلم ملتزم بهدفها ووحدتها بمجرد دخوله فيها. دخول الإنسان في الإسلام يعني قبوله في أن يكون عضواً في الأمة، وذلك بمحض إرادته ودون إجبار. قال تعالى: " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى .... "[21] .

التزام الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية ذات التزام من شقين: شق يتعلق بالنصوص والشرائع وشق يتعلق بالإرادة الاجتهادية المنبثقة عنها. يستند هذا التصنيف على حقيقة أن القرآن الكريم قد شرع حول بعض القضايا بطريقة محددة وغير خاضعة للتأويلات أو اختلاف الآراء وهي ملزمة لكل المسلمين. وهناك تشريعات فسرها لنا الرسول عليه السلام بالقول أو الفعل وهي مفصلة ودقيقة وغير خاضعة للتأويلات أيضاً. تتدرج هذه تحت تصنيف الحديث المتواتر ويشمل مسائل مثل كيفية الصلاة ومناسك الحج. وشرع القرآن حول قضايا كثيرة دون أن يفصل حولها. لقد وضع أمام المسلمين مبادئ يتمسكون بها، لكنه ترك التفاصيل لاجتهاداتهم حسب أوقاتهم وظروف حياتهم. أمر الله المسلمين بالصدقة ولم يحدد النسب أو المبالغ أو الكميات التي يمكن أن يتصدقوا بها. وأمر بالإعداد للقاء العدو كمبدأ يلتزمون به وترك لهم مجال الاختيار في كيف يحققون ذلك. وهناك مسائل وقضايا كثيرة لم يشرع القرآن حولها لا من ناحية وضع مبدأ مباشر ولا من ناحية التفصيل وتركت للمسلمين يجتهدون حولها في ضوء المبادئ الإسلامية العامة.

المتمعن في التشريع الإسلامي وذلك من خلال القرآن وما يفسره من الحديث يجد أن الإسلام يفسح مجالاً واسعاً للاجتهاد ولا يحصر المسلمين في زوايا مسوّرة لا يقوون معها على الحركة وإعمال الفكر والعقل. هذا الكلام على عكس ما يظن أغلب المسلمين الآن وخاصة المتخصصين في الشريعة. أغلب المسلمين يظنون أن الإسلام عبارة عن نظام شامل وصالح لكل زمان ومكان لأنه يشرع بالتفصيل حول كل شيء. هذه جدلية متناقضة أصلاً ولا يمكن أن تكون صحيحة لأنه لو كان الإسلام يشرع بالتفاصيل حول مختلف القضايا لكان صالحاً فقط لزمان ومكان

معينين. التشريعات المفصلة ثابتة وهي غير قادرة على التعامل مع الظروف والأوضاع المتغيرة لأنها فاقدة الحركة أصلا. أما الجدلية الإسلامية الصحيحة هي أن الإسلام قلما يعطي تفصيلات مما يترك للمسلمين حرية الحركة خلال المبادئ الإسلامية.

حتى أن بعض المسلمين يحاولون إجهاد أنفسهم في البحث عن فتاوى في الكتب القديمة حول قضايا حديثة وذلك ليثبتوا أن الإسلام قد أتى بكل شيء ولم يترك قولاً لقائل. حتى أن بعضهم حاول أن يجد في الكتب حول الوصول إلى القمر أو اكتشاف القنبلة الذرية. محاولاتهم هذه أثقلت على المسلمين وذلك بسبب التفاصيل الكثيرة التي أدخلت على كثير من جوانب السلوك الإنساني خاصة في الشعائر والمناسك. عدم قدرة المسلمين على الحركة والحيوية داخل المبادئ الإسلامية دفعهم إلى الاعتماد الكبير على اجتهادات السابقين حتى أصبحت اجتهاداتهم الإسلام ذاته ولتحل أحياناً محل مبادئ إسلامية أساسية. فمثلاً تجد كاتباً إسلامياً يمجد العقل ولكنه لا يمنح هذا العقل حرية التفكير والتعقل كما أمر الله سبحانه. [22] وتجد مثلاً ثلاثة من أساتذة الشريعة الإسلامية يقولون أن الإسلام يفسح المجال أمام الاجتهاد وأن الاجتهاد عبارة عن روح الأمة [23] ومن ثم يعرفونه كالتالي : " أنه عملية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية في الشريعة. ومعنى ذلك أن للشريعة حكماً في كل حادث ممكن وفيها أدلة كافية لتهدي الباحث المجتهد إلى ذلك الحكم الشرعي"[24] واضح أن هذا التعريف يعني أنه لا يوجد اجتهاد في الإسلام. أنه تعريف يخلو تماماً من فتح أي مجال أمام العقل المسلم ويترك الأمة بلا روح. فلماذا الإقرار قولاً بوجود اجتهاد بينما يحرم المسلمون من الاجتهاد عملياً ؟ لا أريد التعمق في هذه المسألة هنا لأن الحديث حولها يطول، لكنني أعود إلى الشقين اللذين يشكلان كلا متكاملاً ولا ينفصلان.

يشكل الأول قاعدة إيمانية تعبر عن الالتزام العقائدي وأرضية يستند عليها المسلم والأمة الإسلامية في توجيه نشاطاتهم المختلفة وينير الطريق أمام إرادتهم الاجتهادية وحولها.

الأمة، سواء تكونت من واحد أو من جماعة ملتزمة بتلك الأحكام الواردة في مصادر التشريع والتي هي أساسا القرآن ومن ثم ما ثبت عن الرسول عليه السلام أنه تشريع. التشريع الإلهي، والذات الإلهية مطلقة، الله خالق هذا الكون وصائغ كل القوانين التي تحكمه سواء كانت قوانين تتعلق بالطبيعة أو بالسلوك الإنساني، وسواء تعرف عليها الإنسان المسلم أو لم يتعرف. إنه مطلق الحكمة والعدالة، وتشريعاته لا تتناقض ولا تتضارب مع قوانين الكون الطبيعية وقوانينها عبارة عن صدى للإرادة الإلهية، والتشريع ليس إلا تعبيراً عن إرادة الله التشريع طبيعي كما هو الطبيعي طبيعي ومصدرها واحد. لذلك فإن الأمة الإسلامية من ناحية الخطوط العريضة لتنظيم العلاقات ليست بحاجة إلى تلك التأملات في عالم ما فوق الطبيعة لتتعرف على الحقيقة لأن الحقيقة بين يديها. الحقيقة بخطوطها العريضة موجودة، وعلى المسلم كما على الأمة أن تنطلق منها في التفكير والتعقل والتدبر لتصل إلى مراتب عالية من المعرفة.

التشريع الإسلامي لا يمس كل جزئية حياتية بصورة مباشرة. هناك أمور جزئية يشرع فيها الإسلام بصورة تفصيلية كالإرث والزواج، لكن هناك أموراً أخرى يضع لها الإسلام خطوطاً عامة تهتدي بها الأمة كالشورى واختيار ولي الأمر والتدبير الاقتصادي. فمثلاً يقول تعالى : "وشاورهم في الأمر ... ، [25] ويقول " ... وأمرهم شورى بينهم .... "[26] لا يبين هذا التشريع كيفية قيام الشورى، ولا يوضح مسألة تشكيل مجلس ومدى إلزام رؤيته أو مشورته للقائم على شؤون الأمة. كذلك الأمر بالنسبة للتطوير الاقتصادي. يوضح التشريع الإسلامي تلك النشاطات

الاقتصادية المحرمة كالربا، ويبين خطوات لها علاقة بتوزيع الثـروة ومحاصـرة الفقر، لكنه يترك المجال للأمة لتفكر بالطرق الملائمة لتخطي المصاعب الاقتصادية وتحقيق التقدم والرفاء دون أن تتخطى ما حرم الله. ينطبق هذا أيضاً على اختيـار ولي الأمر حيث أن البيعة منصوص عليها لكن أسلوب تنفيذها ليس محدداً.

صحيح أن هناك اجتهادات إسلامية حول كيفية الالتزام بالمبدأ أو تنفيـذه لكنهـا لا تشكل قواعد مطلقة ولا ترتقي لتشكل أوامر إلهية. اجتهد المسلمون حـول خلافـة رسول الله عليه السلام، واجتهد أبو بكر في تنصيب عمر بن الخطاب، واجتهد عمر بن الخطاب في تعيين مجلس لاختيار الخليفة. لكن هذه تبقـى اجتهـادات حسـب ظروف الزمان والمكان ولا ترتقي إلى مستوى التشريع الإلهي. واجتهد المسـلمون أيضاً في كيفية القيام بالبيعة. وكذلك فعلوا في كيفية إدارة الدولة في عهد الأمـويين وكيفية تحقيق التقدم العلمي في عهد العباسيين. بمعنى أن الأمة الإسلامية غير فاقدة لزمام المبادرة ولا هي مجرد آلة تطبق تفاصيل حياتية منفصلة عن الحيـاة التـي تعيشها.

تعلمنا من التاريخ أن الأحوال والظروف في تغير مستمر، وكذلك التـاريخ نفسـه. ومن إبداعات الأمة (أي أمة) أن تكون قادرة على تطوير أساليبها وإجراءاتها مـن أجل تطويق الظروف المستجدة وتطويعها لخدمتها. أما الأمة التي تركن إلى أساليب حياتية جامدة لن تجد نفسها إلاّ خلف الأمم ويصيبها التدهور والانحطاط. وقد حصل في التاريخ الإسلامي ما يدل على حرص الأمة علـى الإبـداع. فمـثلاً أمـر الله بمواجهة العدو، وقد فعل المسلمون ذلك في حروب وغـزوات كثيـرة. وأمـر الله بتشجيع العلم، وقد فعلت الدولة العباسية ذلك بطرق مختلفة. ولعل في الآية الكريمة: "له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، إن الله لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه مـن

وال، [27] ما يحفز الأمة الإسلامية إلى الابتكار المستمر وتشجيع الإبداع والتطوير. الأمة لا تتقدم إلا بإبداعاتها وإذا فقدت قدرتها على ذلك أو منعت عنه أو كان في بنائها ما يحول دون ذلك فإنها تفقد حيويتها وتسلم طريقها نحو الانحدار والتدهور. والأمة لا تتقدم بدون إطلاق العنان لعقولها وتوفير المناخ المناسب لاجتهاداتها مما يقود إلى التجديد المستمر.

التجديد هو عدو المتمسكين بالتقليد وكذلك الحريصين على مصالحهم الشخصية، لكنه صديق الأمم الحية التي تعمل دوماً على إحراز التقدم على مختلف الصعد. التجديد حركي وهو ضد الجمود الذي يخلف صاحبه وراء الأمم. دعا الإسلام إلى التغيير كعمل يستحق عوناً إلهياً، واشترط الفعل الإنساني المباشر لكي تكون هناك عناية إلهية. وما دام التجديد والسعي والعمل مطالب إسلامية فإن الإسلام يفترض أن المسلم مجتهد كما أن الأمة الإسلامية مجتهدة. المسلم مجتهد في مجاله والأمة مجتهدة في مختلف المجالات. إن لم يفعل المسلم ذلك وإن تخلت الأمة الإسلامية عن الاجتهاد فان الله لن يغير ما بها. ولنا عبرة في وضع المسلمين الآن الذي يعانون فيه من الجمود والتخلف والهزائم.

إبداعات الأمة الإسلامية لا تتم بمعزل عن التشريع العام، بل تلتزم به ولا تخالفه، وعلى الأمة أن تبقى على جاهزية عالية لمواجهة مختلف الظروف ولتكون رائدة في تقديم الجديد في مختلف الحقول والمجالات. وعليها أيضاً أن تلتزم بما منحها الله من مقومات عقلية فتأمر بأمر الله وتخضع الأشياء للتمحيص والتفكر والتدقيق. أي أن عليها أن تكون مجتهدة. اجتهادها هذا يتضمن الجد في العمل وفي التصوير الدقيق الذي يبنى عليه العمل. وهذا ما اخترت أن اسميه الإرادة الاجتهادية للأمة.

الإرادة الاجتهادية هي تلك القوة النابعة من الأمة والدافعة نحو حياة دنيوية تتغير وتتجدد بتقدم تصاعدي على مختلف الأصعدة. أي هي قوة متأصلة في البناء الداخلي للأمة، وتأصلها راجع إلى أنها مبنية أصلاً على مبادئ الشريعة الإسلامية التي تدفع نحو التقدم المستمر والمتواصل. ولذا فإن القوة نابعة من الأمة وتسير حثيثاً نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يجعلها في مقدمة الأمم. والأمة لا تكون خير الأمم بشعائر ومناسك وإنما بما تحققه من إنجازات على الأرض تحسن من نوعية حياة الإنسان وتفتح آفاق جديدة للبناء والعمران والتطوير والاستقرار النفسي والتوافق الاجتماعي. لذا فان الإرادة الاجتهادية عبارة عن تفاعل الأمة الإسلامية مع الواقع بما يشمله من مخلوقات وأشياء وما تتخذه من خطوات عملية للتطوير والتحسين دون إخلال بقواعد الشريعة، بل بالاجتهاد المستمر ضمن قواعد الشريعة. إنها تعني بالتطوير العلمي وبناء جيش قوي، وتطوير الطفولة والاهتمام بالشباب، الخ مما يجعل الأمة طليعة الأمم.

الإرادة الاجتهادية حاسمة في صنع حياة دنيوية تتقدم وتتطور باستمرار، وهي حاسمة أيضاً في مساعدة الإنسان المسلم على القيام بواجباته الدينية (أو ممارسة التقوى) على وجه أعم وأشمل مما لو كانت الأمة غير موجودة.

الإرادة الاجتهادية مناطة بالأمة ككل، وهي تعبر عن وحدة الأمة. ليس كل واحد في الأمة مجتهداً، لكن الباب ليس موصوداً أمامه لأن يكون كذلك. لكن من عجز عن أن يكون كذلك أو لم يرغب في أن يكون يسلم بوحدة الإرادة وذلك بالتسليم بآراء من يراهم أهل الحجة والعلم والمعرفة. وهذا التسليم لا يعني بأن الإرادة الاجتهادية محتكرة في أيدي قليلة، ولكنه يعني الاطمئنان إلى أنها مجمل تفاعل آراء المجتهدين الذين بلغوا من سعة الاطلاع والتفقه مدى عظيماً. يجسد الإرادة

الاجتهادية هذه إمام يتقدم المسلمين جميعاً بمن فيهم علماء المسلمين في مختلف مجالات العلم.

لا يوجد للأمة الإسلامية حاكم إنسان لأن الحاكمية لله، لكن هناك إماماً أو خليفة أو أميراً للمؤمنين. الإمام يؤم الناس في منسكهم وشعائرهم ويؤمهم نحو الفضيلة العملية والخير الدنيوي وتقوى الله على مختلف المستويات، وهو إمام المجتهدين الذين بلغوا درجة عالية من العلم والمعرفة، ورئيس أي هيئة اجتهادية أو مجلس ترى الأمة ضرورة وجوده كجزء من مأسسة الاجتهاد. وهو الذي يضمن تفاعل مختلف الآراء والاجتهادات ويضمن عدم إغلاق الباب أما مشاركة من يرى في نفسه المقدرة. لا يرى أبو الحسن الندوي أي عائق أمام النشاط الاجتهادي للمسلم إذ يقول أن التشريع ليس صفة من صفات الله عز وجل، وأن الذي يشرع لا يتعدى حدوده ولا يجعل من نفسه سلطاناً.[28] هذه بالضبط هي الفكرة الإسلامية من الاجتهاد. إنها فكرة مشاركة المسلمين في الوصول إلى الحل الأمثل لحل المسائل والمعضلات وليست فكرة احتكار وهيمنة وإغلاق الباب أمام الانطلاق الفكري.

ولكن هل هناك أمة لكي تكون هناك إرادة اجتهادية؟ نعم هناك أمة، وقد أوضحت في الصفحات السابقة بأن المسلمين عبارة عن أمة أرادها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس. ولكن بالإضافة إلى ما أوضحت يخاطب القرآن المسلمين "كجماعة" أي أمة وذلك للحفاظ على هويتهم والاستمرار في السير نحو مقاصدهم. فمثلاً يبين الله سبحانه تكتل المسلمين والمواثيق التي يمكن أن يبرموها مع الآخرين: "إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير" .[29] وقال في تأكيد على هذا التكتل : "يا أيها النبي حرض

المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" .[30]

الآيات من هذا القبيل كثيرة في القرآن، وهي ليست موجهة للمسلم كشخص كما هو الحال في العديد من الوصايا، وإنما لمجموع المسلمين الذين يوالون بعضهم بعضاً ويواجهون أخطاراً كثيرة. وهي ضمناً تعني أن المسلم كشخص غير قادر وحده أن يقوم بالمهام التي يقوم بها جمهور المسلمين. أي أن الجمهور أو الأمة عبارة عن سياج يحمي المسلم ويدافع عنه ويقوده نحو التقوى والاستفادة الأكبر من نعم الله. فضلاً عن أن الإسلام ليس دين كهنوت أو رهبنة وهو بالتالي ليس دين انعزال. وكما أوضحت سالفاً، لم يخلق الله سبحانه الإنسان كفرد وإنما خلقه زوجاً وخلق الناس على شكل شعوب وقبائل. فإذا كان الله قد خلق الناس على طبيعة جماعية فهل يمكن أن يوحي بتعاليم تفرق الناس إلى أفراد. المسلمون هم أولى الناس بالتجمع ولكن ليس على شكل شعوب وقبائل وإنما على شكل أمة لأنهم أصحاب رسالة توضح لهم منطلقهم ومنهجهم ومقصدهم. وإذا عجز المسلمون عن إقامة الأمة الآن فإن ذلك لا ينعكس على المبادئ الإسلامية.

المسلم والأمة

لا يفعل الإنسان المسلم الخير لذاته وللآخرين بصورة عشوائية. هناك تسلسل في واجباته، أو بعبارة أخرى في حقوقه نحو نيل الثواب ومرضاة الله وكسب طمأنينة الدنيا والآخرة. على اعتبار أن الفرق بين الواجب والحق يضيع هنا لأن ما هو واجب ليس إلا حقاً من زاوية ما يطمح إليه الإنسان في الحياة الآخرة، وما هو حق ليس إلا واجباً من زاوية متطلبات التقوى. على المسلم واجب (الذي في نفس الوقت حق) مد يد العون للآخرين وأولا للمضطهدين والمستضعفين في الأرض وغير القادرين. يدخل ضمن هؤلاء المستعبدون والمستغلون والفقراء والمساكين واليتامى. فحيثما وجد هؤلاء وكان بمقدور المسلم المساعدة فإن عليه وله أن يفعل ذلك. قال تعالى : "... ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح .... "[31] وقال : "أنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين". [32] وقال أيضاً : " ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. "[33] أما الأحاديث النبوية بهذا الخصوص فكثيرة .[34]

يشمل عمل الخير هذا الحيوان والنبات والمحافظة على البيئة وإزالة الأذى عن الطريق، وإلى غير ذلك من فضائل تتعلق بالحياة اليومية للناس ومستقبلهم.

الإسلام لا يقفز عن رابطة الدم والقربى في توجهه نحو خلق صالح عام للمسلمين. فالمسلم مطالب بأن يتحسس ظروف أهله وأقاربه الذين لهم أولوية في العون والمساعدة. قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ...." [35] وقال : "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب... "[36]

أتت كلمة ذوي القربى في هذه الآية في المقدمة، وهو أولى الناس في الدعم وقت الضيق. بالطبع لم يختص الإسلام ذوي القربى بهذا الموقع لأسباب تعصبية وإنما لأسباب اجتماعية. فالأقارب أقدر على معرفة أوضاع حيوات بعضهم البعض وأسرارها، وبالتالي يستطيعون نجدة بعضهم البعض دون ضجة قد تسبب إحراجاً. يرفض الإسلام كما هو معروف أن تقوم علاقات بين الناس مخالفة لأحكام الشرع، ومساعدة الأقارب ما هي إلا إحدى الآليات الاجتماعية لبث روح التعاون والمشاعر الطيبة بين الناس. وهذا يتمشى تماماً مع ما ذكرنا في بداية البحث من أن الله خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لكن التقوى تبقى ميزان الإكرام.

يمتد فعل الخير أو المعروف من الأهل إلى الجار ثم إلى أهل البلدة فالبلدات المجاورة وهكذا. لكن هذا المعروف يبقى محدود النطاق ضمن الشخص أو مجموعة من المسلمين، ومساهمته في الصالح العام للأمة تبقى محدودة. فالإسلام مثلاً أمر بنشر الدعوة الإسلامية، وفرض الجهاد لصون حياض المسلمين، وفرض الزكاة وحث على العمل والكسب والحرص على مصالح المسلمين عامة. فهل من الممكن لمسلم أو لمسلمين متفرقين القيام بهذه الأعمال الحيوية؟ وهل يستطيع المسلم أن يكون مسلماً حقاً إذا لم تكن له مساهمات في هذه الأمور الجوهرية وما شابهها؟ وهل واجب المسلم أن يكون محسناً وعطوفاً ومتصدقاً فقط، أم عليه أن يكون مشاركاً في البناء والتقدم؟ وماذا يجدي حرص المسلم على الصلاة والقيام بالشعائر الدينية وبلاد المسلمين محتلة ويحكمها الكافر؟ وما هو شأن المسلم إذا كان المسلمون متخلفين علمياً؟ وما هي سعادة المسلم إذا كان جمهور واسع من المسلمين فقراء؟

أعود هنا إلى التقوى الاستنهاضية التي شرحتها سالفاً. فحسب هذه التقوى، مشاركة المسلم في الجهاد عبادة وتأدية لفريضة. وكذلك تحصيله العلمي وإيتاء الزكاة

والتشريعات الإسلامية بخصوص الأعمال والإنجازات العامة كثيرة، والمشاركة في هذه الأعمال والإنجازات واجبة على كل مسلم. فالمسلم ليس ناسكاً أو راهباً منعزلاً عن النشاطات العامة ومنهمكاً في شعائر دينية ظاناً أنها هي وحدها التي تقربه من الله. العمل العام عبادة ومن يتخلف عنه يلقى حساباً عسيراً. فالذي لا يشارك في الجهاد مثلاً يبوء بغضب الله، وكذلك الذي لا يدفع الزكاة. قال تعالى: " إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً، والله على كل شيء قدير". [37] وقارن بين النفير وبين السقاية وعمارة المسجد بالقول: "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين". [38] وقال: "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.... " [39]

لا يكتمل إسلام المسلم إلا بالقيام بمختلف النشاطات والأعمال التي نص عليها الإسلام، وعليه أن يقوم بواجباته العامة بالضبط كما يقوم بالشعائر والمناسك التي يمكن أن يقوم بها وحده. فحتى يكون قادراً على الوفاء بمتطلبات التعليم لا بد له أن يكون جزءاً من جماعة أو عضواً في جماعة. الجماعة هي التي تؤطر المقصد وتوحده وترتب الأساليب الضرورية لتحقيقه. وهذه الجماعة هي الأمة التي سبق وشرحتها. وكما يقول محمد الهادي زيان، لا يستطيع المسلم أن يبني شخصيته ولا تكون هناك شخصية إسلامية إلا بظهور الأمة الإسلامية. [40] هذا حديث منطقي من حيث أن شخصية الإنسان تتأثر إلى حد كبير بمجتمعه ومحيطه، ومهما حاول الخروج عن القيم والأعراف والتقاليد فإنه لن ينجح إلا جزئياً. وكذلك المسلم الذي لن يستطيع إقامة الحياة الإسلامية ضمن أمة أو مجتمع لا يقيم الحياة الإسلامية.

بما أن المسلم يعمل على القيام بواجباته أو ممارسة حقوقه كاملة فإنه متوجه حتما نحو الأمة التي تقوم على أساس جماعي. توحد الأمة منطلق المسلمين ومقاصدهم

ومنهجهم. إنها تحمل راية لا اله إلا الله وتعمل على نشر الدعوة الإسلامية، وتتخذ الإجراءات المناسبة لتحقيق الأمن المادي والمعنوي لجمهور المسلمين، وتسير في طريق التقدم المادي والمعنوي لتكون قدوة الأمم. فالأمة كما أسلفت، تعمل على تطوير حياة دنيوية في مختلف المجالات، وتعين الفرد على إتمام واجباته الدينية، ويحقق المسلم من خلالها التقدم المادي في الحياة الدنيا ويعزز سعيه نحو الفوز العظيم في الحياة الآخرة.

نستنتج من هذا أن الجماعية في الإسلام هي نتيجة لتوجه المسلم نحو الفضيلة، نحو المشاركة من أجل الآخرين ومع الآخرين. إنها ليست نتيجة صراع بين أشرار سواء كانوا أشخاصاً أو جماعات، وإنما نتيجة توجه يشترك فيه المسلمون. وهي ليست نتيجة تفاعل أناس خيرين بالطبيعة، وإنما نتيجة تفاعل أناس هذبهم الإسلام بتفجير الطاقات الخيرة في نفوسهم. لم يقرر الأشخاص أن الجماعية هي النمط الحياتي الذي يريدونه نتيجة مصالح دنيوية فقط وإنما أيضا نتيجة الحرص على ممارسة الواجبات والحقوق الدينية التي تحررهم من العبودية والاغتراب وتجعلهم مشاركين مالكين لأنفسهم.

هذه النتيجة مشمولة ضمناً وصراحة في التعاليم السماوية. فهي ضمناً لأن المسلم يحرص على تنفيذ التعاليم لأن في ذلك عبادة، وصراحة لأن مصادر التشريع وعلى الأخص القرآن الكريم قد نصت عليها. وبما أن الله هو خالق هذا الكون ومهندسه فإن ترتيبه لحياة الإنسان يتوازن مع التركيبة الكونية. أي أن الترتيب الإلهي لمجمل العلاقات الإنسانية والاجتماعية ليس غريباً عن طبيعة الإنسان الخلقية وإنما منسجماً معها. وهذا باعتقادي هو المعنى الصحيح لعبارة أن الإسلام هو دين الفطرة. أي أن الدين المنسجم مع ما فطر الله الإنسان عليه، أي مع طبيعة تكوينه النفسي والجسماني. وبهذا الدين ينسجم الإنسان مع نفسه ومع الآخرين في حياة لها

خصوصية تتدرج بسلاسة نحو حياة عامة. الترتيب الإلهي للإنسان عضويا وعاطفياً وذهنيا، الخ عبارة عن جزء من كل متكامل ولا ينفصل عنه ولا يتناقض معه. أما أن الإنسان ولد مسلما فقول لا تؤيده الوقائع التاريخية واليومية، على الرغم من أن الإنسان عابد على اعتبار أن أعماله الطبيعية عبارة عن شاهد على خلق الله.

التوازن بين المسلم والأمة

الإسلام دين توازن ولا يجنح نحو كفة دون أخرى، وذلك هو الحق في التعامل والمعاملة. لا يعطي الإسلام شيئاً أهمية على حساب شيء آخر، ولا يتجاوز أهمية شيء لصالح شيء آخر. وهذا هو عنصر من عناصر الاعتدال في الإسلام. جعل الله المسلم وسطاً حيث طلب منه العدل، وجعل الأمة وسطاً.

المسلم شخص له استقلالية في الإسلام، أو أنه يتميز عن الآخرين دون أن ينفصل ويملك حرية المبادرة الشخصية. وهذه المبادرة هي التي تقود إلى ممارسة التقوى التي يتميز الأشخاص بها وتتميز مراتبهم واستحقاقاتهم حسبها. المسلم مسؤول عن أعماله في الدنيا والآخرة وهو الذي يبادر إليها ويزنها وينفذها. وبذلك يزن هو ما يعتقد أنه جيد له ويقرر كيف يستطيع المحافظة على مصالحه الشخصية في الحياة الدنيا مع الحرص على دخول الجنة في الآخرة.

من خلال المبادرة الشخصية يصعد المسلم في مراتب السمو الإنساني أو التقوى، وفي ذلك صعود للأمة ككل بسبب جدلية العلاقة ما بين التقوى الشخصية وصالح الأمة. والفرد قادر على المبادرة لأنه يملك العقل الذي يحمل في داخله قدرة التفكر والتعقل والنظر والتدبر. يتأكد الإيمان تفكراً بتحليل الكليات إلى جزئيات، وتعقلاً

بتركيب الجزئيات إلى كليات. ينظر المسلم بآيات الرحمن ويتدبر القرآن بحصافة وتمعن مما يقوده إلى الإيمان التأكيدي الذي يعي قدرة الله من خلال دقة الخلق وانسجام الكون. وبهذا يرتقي المسلم نحو وحدته كشخص مع الكون، فينعكس الكون فيه ويرى هو نفسه في التناغم والانسجام الكوني. فمن خلال المبادرة يتوحد الذاتي والموضوعي، أو يتوحد الإدراك بالذات مع الإدراك بالكون فيختفي التناقض. إنها وحدة النقائض التي يكتشف المسلم في النهاية أنها ليست محكومة بعلاقة صراع وإنما بعلاقة تكامل.

في هذه المرحلة يبدأ يعي المسلم وحدة الناموس المادي مع النظام الأخلاقي، وأن النظام الأخلاقي الإسلامي ليس إلا صدى للنظام الكوني الذي يقوم على تسبيح الله "يسبح لله ما في السموات وما في الأرض .... "[41] أي على نظام أخلاقي واحد يترجم أحياناً إلى قوانين فيزيائية وأحياناً إلى قوانين معنوية واجتماعية.

بما أن المبادرة الشخصية حاسمة في إحداث الوعي بوحدة الناموس الإلهي، فإن المسلم لا يذوب في الجماعة. وفي هذا يختلف الإسلام عن الفلسفات الإنسانية وحتى عن الأديان التي تتجسد في مجالس تعبر عن إرادة الله. فأفلاطون مثلاً أذاب الإنسان في الجماعة، وكذلك فعل ماركس في المرحلة الشيوعية. وقد أكد القرآن الكريم تميز الشخص المسلم تبعاً لتقواه بقوله :"إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[42]

الإسلام أيضاً لا يخرج المسلم عن الجماعة ولا يفصله. فالمسلم كإنسان مخلوق أصلاً كزوج، وهو مخلوق أيضاً ضمن شعب وقبيلة. وفي الإسلام لا يستطيع أن يرتقي المسلم بإسلامه أو بتقواه إلاّ من خلال الأمة. الأمة هي السياج النفسي للمسلم الذي يوفر له الأمن والطمأنينة، وهي التي تقوم على البناء والتقدم في مختلف الميادين مما ينعكس خيراً على المسلم، وهي تحمل الرسالة إلى الأمم، وبدون الأمة

لا يستطيع المسلم أن يصعد في مراتب التقوى. أو كما يضعها محمد الغزالي "فكل اعتزال عن الأمة يفوت جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يضعف من جانب الدفاع عن الإسلام أمام خصومه. فهو جريمة ولا يقبل من صاحبه عذر"[43]

وتقول عائشة عبد الرحمن أن الفرد لا ينفصل عن الجماعة مضيفة أن "الإسلام ألغى هذه الحواجز غير الطبيعية، بين الفرد والجماعة، فهما فيه لا ينفصلان. وهو في عنايته بالإنسان فرداً، إنما ينظر فيه إلى اجتماعيته التي لا يمكن تصور إنسانيته بمعزل عنها، كما لا يتصور كيان اجتماعي بغير أفراد"[44] وتضيف بأن فروض العبادات وأحكام المعاملات وضعت من حيث أن الإنسان اجتماعي وليس متوحشاً[45] على الرغم من أن الفكرة تصب في عدم انفصال المسلم عن الجماعة إلا أنها تفسر ذلك بناء على أسباب اجتماعية وليس بناء على أسباب خلقية. لكن محمد قطب يفسر التوازن بين "الفردية" والجماعية بناء على أسباب فطرية. أنه لا يفسر بالضبط كيفية عمل الفطرة أو أسسها وإنما يكتفي بالقول بأن هذه هي فطرة الإنسان.[46]

على الرغم من فتح المجال أمام الإبداع الشخصي، وعلى الرغم أنه من واجب وحق كل مسلم في الارتقاء، إلاّ أن الأمة لا تتخلى أيضاً عن المبادرة. فهي العين التي ترقب الالتزام بالتعاليم السماوية، وهي التي ترقب هموم المسلمين بغرض وضع السياسات اللازمة لحلها. فهي تمنع مزاولة الأعمال التي حرم الله مثل تناول المشروبات الكحولية أو إنتاجها، أو توزيع لحم الخنزير أو تربية الخنازير. وهي بالإضافة إلى ذلك تشرف على المصادر العامة التي لكل مسلم حق فيها مثل الماء والكلأ والمصادر الطبيعية الأخرى. الأرض لله والإنسان مستخلف عليها، والأمة تضمن أن الناس شركاء فيما خلق الله لهم وفرقاء في مجهوداتهم الذاتية. والأمة ليست مجرد شرطي يراقب الأمور ويعاقب، وإنما تسعى نحو التصنيع والاستصلاح

الزراعي والتطوير العلمي، الخ. إنها تعمل باستمرار على إحراز السعة المادية والامتياز في مختلف مجالات الحياة.

وعلى ذلك نرى، وكما وضعها يوسف القرضاوي، أن الإسلام متوازن وحله وسط. فهو ليس على حساب الشخص ولا على حساب الأمة والمجتمع. الحل الإسلامي بالنسبة له غير متطرف ويبتعد عن"تفريط الرأسماليين الذين جاروا على حق المجتمع من أجل حرية الفرد، وإفراط الاشتراكيين الذين طغوا على حق الفرد من أجل مصلحة المجتمع .... "[47] أو كما وضعها عباسي مدني أن الإسلام عبارة عن توازن الشروط العقائدية التعبدية مع الشروط المعنوية والنفسية ومع الشروط الفكرية والعلمية.[48] يظهر هذا التوازن في الآيتين الكريمتين التاليتين: قال تعالى مخاطباً المسلم: " ... ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين"[49] وقال مخاطباً المسلمين: "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم"[50] تظهر أهمية وحدة المسلمين في فتوى أحد الفقهاء عندما استُنهض لحل خلاف في المسجد حول عدد ركعات صلاة التراويح. فأفتى بإغلاق المسجد وألا تصلى التراويح، وذلك لأن التراويح نافلة ووحدة المسلمين فريضة.[51]

وحدة الجماعة في الإسلام عبارة عن حرمة دينية، بمعنى أن تجاوزها عبارة عن انتهاك لمبدأ قرآني.[52] وقد قال تعالى :"واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .... "[53] في هذا المجال يقول مصطفى وصفي أن الأمة الإسلامية عبارة عن"جماعة متضامنة متماسكة تضامناً حقيقياً بسبب ما قررنا من انعكاس وحدة الإيمان على قاع الأمة بالتضامن والتماسك".[54] يبرر محمد قطب هذا التماسك بناء على العقيدة التي يعتبرها"أعلى ما يمكن أن

تقوم عليه حياة الإنسان، هي الوشيجة الحقيقية التي تقوم عليها الأمة الحقيقية. الأمة الخيرة .. ثم تنضوي تحتها كل العلاقات الأخرى"[65] ويدعم هذا بقوله تعالى: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ...." [66]

وقد كان تعبير الأخوة هو أفضل ما يعبر عن التوازن. فقد ورد في الآية المشار إليها أعلاه : "واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً .... "[67] وقال تعالى : "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون. "[68] وقال عليه السلام"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة" .[69]

يعرف قاموس **المنجد** الأخ بأنه من خرج الإنسان وإياه من صلب أو بطن واحد. أي أن الأخوة يرتبطون بشراكة عضوية، لكنها لا ترتقي إلى جسم عضوي واحد. العضوية عبارة عن شراكة لكنها لا تذيب الأخوة في بعضهم البعض. وقد وصف المؤمنون بالأخوة على اعتبار أن لهم منبعاً واحداً وهو منبع الإيمان. وهذا المنبع الإيماني شبيه بالمنبع العضوي للأخوة. يتفق محمد زيان مع هذا الطرح إذ يقول أن الأخوة تنطلق من أصل واحد ونسب واحد وهو الإيمان بالله والسير حسب التعاليم السماوية.[60]

في الإخاء لا يوجد استعلاء في النسب أو تكبر، وكذلك عندما يكون الإيمان منبع الاخوة، ولكل واحد منهم قدراته، لكنهما لا ينفصلان مهما بلغ الشقاق بينهما، وإذا كان الإيمان هو المنبع فالتمييز وارد واحتمال الشقاق يبقى ضعيفاً جداً لأن الشقاق

والإيمان لا يلتقيان. المسلمون عبارة عن عائلة واحدة تقوم على التقوى. كل أخ يختار الطريق التي يراها مناسبة ولكنه في النهاية يعمل من أجل الصالح العام للعائلة التي تشكل كلاً متكاملاً ووحدة واحدة. العائلة هي سقف للجماعة وتبسط ذراعيها في رقة وحنان على كل شخص، وكل شخص عبارة عن ركن راسخ يحمل على قمته هذا السقف. وهكذا يمتزج الشخص بالجماعة والجماعة بالشخص، وكل منهما يعرف أين يقف وكيف يتصرف فيتحقق الانسجام الطبيعي والتوافق الإنساني العام.

هذا هو النموذج الإسلامي وهذه هي دعائمه. فإذا كان العالم الآن قد فقد ثقته بالجماعية، أو أنه يعاني من انعكاسات خطيرة للفردية، فله أن ينظر إلى الإسلام إذ قد يجد ضالته فيه. والعنصر الحاسم في هذا النموذج هي الأخلاق الإسلامية لأنه بها يمكن إقامة الأمة التي ترعى المسلم، والمسلم يرعاها. وتماسك الأمة، حسب رأي منير شفيق، يعتمد بالدرجة الأولى على أخلاق المسلمين آحاداً وجماعات. فكلما تمسكوا بالأخلاق الإسلامية والتي تشمل مختلف نواحي الحياة الاجتماعية كانت الأمة موحدة مترابطة ومتماسكة وأكثر قدرة على تحقيق مصالحها ونهضتها.[61] الأخلاق الإسلامية طبيعية لأنها ملتزمة بالتعاليم السماوية، والذي يحيا حسبها إنما يحيا حياة طبيعية لا تناقض فيها ولا اضطراب وعلى المستويين الشخصي والعام.

الهوامش

1- j.**Maritain, man and the State**, P.5.

2- أنظر احمد حسن فرحات، **الأمة في دلالتها العربية والقرآنية.**

3- البقرة، 128.

4- آل عمران، 104.

5- الأعراف، 159.

6- النحل، 120.

7- المائدة، 48.

8- الأعراف، 38.

9- الأعراف، 168.

10- الأعراف، 160.

11- الأنعام، 38.

12- الأنبياء، 92.

13- آل عمران، 110.

14- **رياض الصالحين**، ص95.

15- البقرة، 143.

16- الإسراء، 29.

17- النحل، 90

18- الحجرات، 9.

19- **رياض الصالحين**، ص283.

20- المائدة، 8.

21- البقرة، 256.

22- عبد الغني عبود، **الإنسان في الإسلام**، ص ص 69-77.

23- إبراهيم زيد الكيلاني، همام سعيد، صالح الهندي، **دراسات في الفكر العربـــي الإسلامي**، ص149.

24- **م س**، ص 148.

25- آل عمران، 159.

26- الشورى، 38.

27- الرعد، 11.

28- أبو الحسن الندوي، **التفسير السياسي للإسلام**، ص76.

29- الأنفال، 72.

30- الأنفال، 65.

31- البقرة، 220.

32- الحاقة، 33-34.

33- الإنسان، 8.

34- أنظر **رياض الصالحين**، ص ص 69-77

35- التحريم، 6.

36- البقرة، 177.

37- التوبة، 38.

38- التوبة، 19.

39- التوبة، 105.

40- محمد الهادي زيان، **من أجل بناء الشخصية الإسلامية**، ص 283.

41- الجمعة، 1.

42- الحجرات، 49.

43- محمد الغزالي، م س، ص185.

44- عائشة عبد الرحمن، **الشخصية الإسلامية**، ص 183.

45- **م س**، ص184.

46- محمد قطب، **واقعنا المعاصر**، ص ص 130-136.

47- يوسف القرضاوي، **الحل الإسلامي: فريضة وضرورة**، ص131.

48- عباسي مدني، **أزمة الفكر الحديث ومبررات الحل الإسلامي**، ص31.

49- القصص، 77.

50- آل عمران، 105.

51- محمد الغزالي، م س ، ص179.

52- عائشة عبد الرحمن، **م س** ، ص185.

53- آل عمران، 103.

54- مصطفى كمال وصفي، **النظم الإسلامية الأساسية**، ص18.

55- **محمد قطب**، ص55.

56- التوبة، 71.

57- آل عمران، 103.

58- الحجرات، 10.

59- **بخاري ومسلم**.

60- محمد زيان، **م س**، ص ص 272-275.

61- منير شفيق، **الإسلام في معركة الحضارة**، ص201.

الفصل الخامس

حرية التعبير في الإسلام

حرية التعبير في الإسلام مطروحة للنقاش والتساؤل خاصة من قبل الذين يرقبون الحركات الإسلامية الحالية وخطواتها المتصاعدة نحو السيطرة على الحكم في الدول الإسلامية وإقامة الدولة الإسلامية. هل يتيح الإسلام حرية التعبير للناس جميعاً بغض النظر عن معتقداتهم وانتماءاتهم العقدية، أم أنه يقصر هذه الحرية على أهل الكتاب، أم أنه يحصرها فقط على المسلمين المؤمنين به كمنهج حياة وحيد؟ وهل ستحترم الحركات الإسلامية مبدأ حرية التعبير الذي تنادي به الآن؟ وهل المسلمون عامة يميلون نحو الأجواء الحرة التي تمنح الناس حرية البوح بما يرونه مناسباً دون خشية من عقاب أو ملاحقة؟

كما ذكرت في بداية هذا الكتاب، مسألة الديمقراطية مطروحة بقوة أمام المسلمين عامة والحركات الإسلامية الداعية إلى إقامة حكم إسلامي. هل الإسلام ديمقراطي أم لا؟ وهل يفسح مجالاً للتعددية ووجود أحزاب ذات أفكار لا تتمشى مع الإسلام؟ إنها أسئلة تلح على الإجابات، وهي تشكل محوراً أساسياً ضمن التطور الحضاري السائد الآن في العالم، وتحدياً للإسلام والمسلمين. فهل ضمن المعطيات والجدليات التي وردت في هذا الكتاب يقدم الإسلام الردود الشافية الوافية ؟

قبل الاسترسال أرى ضرورة التنويه إلى الخلط القائم الآن بين الديمقراطية والحريات بما فيها حرية التعبير وحرية الحركة والتنقل وحرية تشكيل التنظيم والحزب، الخ. هناك خلط خاصة على الساحة العربية بين التعبيرين بحيث أنهما

يستعملان بصورة متبادلة ليعنيا نفس الشيء. هذا خطأ من الناحية الفلسفية ومن شأنه أن يحصر ممارسة الحريات بالنظام الديمقراطي. بينما الديمقراطية عبارة عن وعاء أوسع من الحريات. إنها عبارة عن نظام تطور عبر مئات السنين في الدول الغربية واستند بالأساس على فكرتين: الفردية والتحررية، وانطلقت النظرة إلى الإنسان من هذه الزاوية وتم ترتيب الحريات من هذه الزاوية أيضاً. فالنظام الذي يقوم على الفردية غير النظام الذي يقوم على الإنسان، وهو مختلف عن النظام الذي يعتبر الفردية خارجة عن إمكانية الوجود العملي. بمعنى أن النظام الديمقراطي يتمشى مع أنظمة ذات طابع معين وتنطلق من الفردية والمبادرة الفرية والمصالح الفردية. أي أن له انعكاسات اجتماعية وثقافية واقتصادية مبنية على ذات الأساس الفكري. هذا النظام وما يتمشى معه من أنظمة تشمل الحريات المختلفة. في هذا الكتاب، هناك تجنب للخلط القائم الآن، وهناك تقدير بأن الحريات على أنواعها ليست سمة خاصة بالنظام الديمقراطي وإنما إحدى سماته التي قد تكون سمة أنظمة أخرى.

يتعجل بعض المسلمين أحياناً بالتجاوب مع التساؤلات حول الحرية والديمقراطية ويعطون أجوبة سريعة تتجاوب غالباً مع المزاج السائد الآن في العالم وهو مدح التعددية وحرية "الفرد" في التعبير عن نفسه. لكن الأمر لا يخلو أيضاً من ردود معاكسة لهذا المزاج. وسواء كان الرد بهذه الصورة أو تلك يبقى من الضروري أن تكون هناك أرضية دينية جدلية تبرر هذا الموقف أو ذاك، أو على الأقل عقلنة للموقف أو تبرير له.

سأحاول في هذا الفصل أن أجيب عن التساؤل حول حرية التعبير في الإسلام. إنها محاولة تحددها الأرضية المعرفية، وهي اجتهاد منبثق من الجدليات التي سبق شرحها في هذا الكتاب. المحاولة شاقة خاصة أن الحرية التي نعنيها الآن في القرن

العشرين ليست موجودة في الإسلام كجزئية بارزة أو كموضوع مستقل، وإنما تشتق اشتقاقاً وتبنى أساساً على جوهر الدين الإسلامي. قد أخطئ هنا وأصيب هناك، لكن المحاولة تبقى خاضعة للنقاش والجدل.

تعقيد الإشكالية

حرية التعبير في الإسلام عبارة عن إشكالية معقدة لا تسهل الإجابة عنها ولا ترتبط بواقع معين أو زمان أو مكان معينين. يكمن التعقيد أساساً في أن هذه الإشكالية مبنية في النظام وليست مجرد جزء منه أو فصل مميز فيه. إنها مبنية في النظام الإسلامي بكل أبعاده الخلْقية والأخلاقية والتربوية، ولا نستطيع معالجتها بمعزل عن النظام ونستند فقط على قول صحابي جليل أو قول مأثور لأحد الأئمة، على الرغم من جلال ما يقولانه. يظن بعض المسلمين أنه لا توجد إشكالية هناك ولا يوجد تعقيد. فقد تجد شخصاً على سبيل المثال يقول أن حرية التعبير في الإسلام غير واردة وممنوعة لأن الله سبحانه قد قال "إن الدين عند الله الإسلام"، وقد تجد آخر يعطي فتوى سهلة فيقول أن الحرية مكفولة ومضمونة لأن الآية تقول : "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر." يستند هذا على جزئية ويستند الآخر على جزئية أخرى ويصدر كل منهما حكمه بسهولة ودون أن يحاول كل منهما وضع جزئيته في قالب شمولي ليعي هو ومن يحدثهم العمق الفكري والعقلي لما يتحدث فيه، أو ليبرر رأيه ضمن بعد شرعي متكامل.

الإشكالية مرتبطة بالخلْق وخاصة خلق الإنسان وانبثاقه العقلي والنفسي وقدرته على التمييز. إنها مرتبطة بجدل الإنسان في القرآن ومدى قدرته على استلهام قدرة الرحمن وإرادته، وعلى إدراكه لقوة الشيطان والباطل الذي يمثله. ومرتبطة أيضاً في الانعكاس الفعلي لهذه العناصر على الإنسان في الحياة الدنيا وتفاعل العناصر

جميعها مع بعضها البعض وما ينتج عن ذلك من واقع. من المهم أن نربط الحركة الإنسانية في الحياة الدنيا بمقوماتها الأخلاقية والمعرفية مع فكرة الخلق والاستخلاف، وبدون ذلك نبقى ندور في حلقة مفرغة بين الداعين للحرية والتعبير الحر وبين المعارضين لهما وما شابه.

صراع الحق والباطل

أوضحت في الصفحات السابقة مستويات الحق وقلت أن الله هو الحق المطلق وينبثق عنه حق كوني يحكم كل الموجودات والمخلوقات، وهناك حق على مستوى الحياة الدنيا ينقسم إلى شقين أحدهما يتعلق بالقوانين الطبيعية ضمن قدرة العقل الإنساني على البحث، وثانيهما يتعلق بالحلال والحرام أو بالسلوك اليومي للإنسان وعلاقاته. يتوازى مع هذه المستويات مستويات من الالتزام.

من الجهة الأخرى هناك الباطل وهو الوَهَم الذي لا يمثل أي حقيقة وإنما يقود إلى الضلال والابتعاد عن طريق الحق. الضلال لا يقوم على حق وبه يكون الإنسان في تناقض داخلي يتطور إلى منازعة الذات وفي تضاد مع النظام الكوني مما يبعده عن الاطمئنان والهدوء. هذا الباطل لا يصمد ولا يعمر لأن الحق زاحف عليه إذ قال سبحانه "... ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور".[1] وقال: "وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً... "[2] وبهذا يقرّ المؤمنون الذين يرون آيات الله حقيقة موضوعية قائمة سواء كانت ضمن وعيهم أو خارجه، وبه يخلصون أنفسهم من الأوهام والأضغاث. وقد عبرت عن هذا الوضع الآية الكريمة : "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار".[3]

يتمثل الباطل في الخارجين عن طاعة الله ومن ظنوا بأنفسهم غير مـــا أراد. يقـــود إبليس الباطل وأهله والذي تمثَّل في القرآن الكريم بالحوار التالي : "قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين. قال أنـــا خيـــر منـــه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين. قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلـــى يـــوم الوقت المعلوم. قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصـــين. قـــال فالحق والحق أقول. لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين"[4] وفـــي حـــوار آخر تقول الآيات :" قال أنظرني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين. قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعـــن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين." [5] وفي سورة أخرى قال سبحانه : " قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريتـــه إلا قليلاً. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً. واســـتفزز مـــن استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً. إن عبادي ليس لك عليهم ســـلطان وكفـــى بربك وكيلاً".[6]

نستخلص من الحوارات هذه ما يلي :

1- حاور إبليس الله سبحانه ولكن ليس محاورة الند للند، وإنما محـــاورة الأدنـــى للأعلى. فقد طلب إبليس إذناً بالإنظار إلى يوم القيامة.

2- أنظَرَ الله إبليس وهو ممثل العصيان. لكن هذا الإنظار لم يكن حقيقـــة نتيجـــة مفاوضات أو محاورات إقناع، وإنما هي إرادة الله الحق.

3- يتمشى الإنظار هذا تماماً مع صفات خلقية يتميز بها الإنسان والتي سبق أن شرحت في الفصل الثاني. فالإنسان، حسب ما هو وارد في القرآن الكريم، ظلوم وجهول وكفور وكفار وعجول وهلوع، الخ. إنها صفات بعيدة عن الوسط والاعتدال وهي تدخل ضمن العصيان إن لم تهذب. بمعنى أن عنصر العصيان موجود خلقاً في الإنسان، وأنه من البيّن أن إبليس لا يعمل في فراغ. في الإنسان الصفات الكافية التي تجعل منه أرضاً للضلال والتمرد على التعاليم الإلهية. إبليس يمثل العصيان، وهناك صفات في الإنسان تمثل الابتعاد عن الحق أو العصيان، ولذا فإن العصيان في وحدة لا تتجزأ. مهمة إبليس ليست بدون أرضية، بل إن الأرضية تتكامل مع النية الإبليسية.

4- يتناقض الإنظار هذا مع قدرة الإنسان العقلية والتي تعني قدرته على التعلم والربط والتمييز. وهذا بالضبط ما تحداه الضلال الذي يمثله إبليس. أنه تحدي تلك الميزة الأساسية التي بسببها دعا الله الملائكة للسجود لآدم. حتى عندما برر إبليس عدم السجود لم يأت على ذكر العلم ونفخة الروح، بل أتى على ذكر مادة الخلق فقال: "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين." فإبليس سيعمل على تحييد وضرب تلك القوة المميزة في الإنسان والتي من شأنها أن تنظم تلك الصفات التي تجنح بالإنسان نحو الضلال.

5- التناقض بين إبليس والإنسان الذي يتمسك بقدراته التمييزية عبارة عن جدل تصادمي. إنه جدل داخلي وخارجي في آن واحد. إنه جدل ضد صفات خلْقية تجنح نحو العصيان، وجدل خارجي مع قوى الضلال التي يمثلها إبليس. وهو جدل إلغائي بمعنى أن كل طرف يحاول أن يلغي الآخر. يحاول الخير والهداية أن يلغيا الشر والضلال، ويحاول الشر والضلال أن يلغيا الشر والهداية. وهذا الجدل التصادمي الإلغائي سيبقى مستمراً إلى يوم الدين، يوم حسم الأمور نهائياً لصالح الحق.

6- الضلال لا يعمل فقط في الحياة اللادنيوية كما حصل مع آدم وحواء، وإنما يستمر في الحياة الدنيا عندما يكون الإنسان في زخم الحياة، أي أن قوة الشر تعمل ضد السمع والإبصار والأفئدة التي تواكبت مع إنشاء النفس المادية. وهذا يعني أن قوى الشر ليست مجرد وسواس وإنما إغواء وإغراء ماديين. وهذا ما يفسره قول الله تعالى: "قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى". [7]

7- والمحصلة أن هناك قوى خير وقوى شر تعمل في الحياة الدنيا، وقد اقتضت إرادة الله أن يكون بينهما جدل تصادمي إلغائي إلى يوم يبعثون. لكل طرف وسائله وأساليبه، ويستمر الصراع فيما بينهما.

الكافرون هم الذين يتبعون الباطل في محاولة منهم لتغطية الحق والخروج عن الصراط المستقيم، وهم يعيشون في أوهام وضلال وغير راغبين في الإقرار بالحق. قال تعالى :" ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم"[8] الباطل لا يستمر لأنه لا يملك القدرة على إثبات وجوده كحقيقة ولا بد أن ينكشف حتى لو خدع بعض الناس. أنه بدون أرضية حقيقية وإنما وهمية من نسيج الخيال، ومهما حاول أن يفرض نفسه لن يستطيع المضي قدماً وسرعان ما ينهار. وقد قال سبحانه: "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون"[9]

أصحاب العقول المتيقظة هم أنداد وهم الذين قال الله فيهم : "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب"[10] وقال مؤكداً على أن

أصحاب العقول هم الذين يؤمنون بالحق ويتذكرونه ويسيرون على هديه : " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"[11] وفرق الله سبحانه بين صاحب العقل الذي يفكر ويتعلم وبين الذي يبعد وجهه عن الحق ويرفض المعرفة والعلم حيث قال: " أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب"[12]

الواهمون لا يتقدمون لأنهم يتبعون الباطل، لكن أولي الألباب يتفاعلون مع الوجود من حولهم ويتفكرون به. هناك من يستمر في إنكار الحق لصالح أوهامه وتخيلاته وعاداته المتوارثة ممعنا في ذلك إلى أن تتكشف له الأمور تماماً عندما يأتي تأويل ما أتت به الرسالات السماوية. قال تعالى : " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .... "[13] وهناك من يفتح عقله أمام الحجة فيرى الحق ويتبعه. قال تعالى :"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد"[14] يتأرجح متبع الباطل بين طرفين: طرف الإمعان في غيه وضلاله وطرف التبين من الحق وأتباعه. تخضع الطريق التي يختارها لعلاقة جدلية بين الوهم واللب. أنه جدل بين نقيضين يتغلب فيه عنصر الضلال على عنصر العقلانية.

متبع الحق يخضع لذات الجدل التناقضي لكن عقلانيته تتفوق على عناصر الشر والضلال. لكنه في نفس الوقت يبقى مغالباً لمحدوديته ونسبيته. فالإنسان المؤمن لا يقوى على إخضاع كل ما يؤمن به للتجربة بحيث تصبح جزءاً من معرفته. طاقته المعرفية محدودة على مستويين: يتعلق المستوى الأول وكما ذكرت في الفصل الثالث حول مستويات الحق، بالإيمان خارج الوعي الإنساني، أي خارج التجربة

الإنسانية. أنه إيمان بالله الحق وإيمان بالحق الكوني ككل. لا يستطيع أن ينفذ الإنسان تجربة وحساً إلى موضوع هذا الإيمان لأنه فوق كينونته وخارج عن الحياة الدنيوية التي خُلق الإنسان وجُعل وأُنشئ ليتناسب معها. أما المستوى الثاني فيتعلق بنسبية المعرفة وتراكمها مع مرور الزمن. العقل الإنساني ليس محيطاً بكل شؤون الحياة الدنيا سواء كانت مادية أو اجتماعية، وإحاطته بها نسبية، أي تتسع وتتزايد مع الزمن. نطاق الإنسان المعرفي يتزايد بعمق التجربة وبتطوير أساليب المعرفة. الإنسان محدود بالزمان والمكان، وهو يحاول عبر حياته الوصول إلى الحق المطلق. أنه، عبر محاولاته، يكشف عن أشياء لم يكن يعرفها من قبل، ويتدرج رويداً بصورة تصاعدية نحو الكشف عن أسرار آيات الله. لكنه هل يستطيع الوصول إلى نهاية؟ لن يستطيع لأن النسبي لن يدرك المطلق حيث أنه ينتمي إلى عالم مختلف يمثل مرتبة أدنى من عالم المطلق.

يتطلع النسبي نحو المطلق في محاولة الوصول إليه أو إدراكه عله يتخلص من نسبيته التي تقوده دائماً إلى التخلي عما توصل إليه من حقائق لصالح حقائق جديدة تلغي ما سبق. حقائق النسبي مؤقتة لا تلبث أن تنهار أمام مكتشفات جديدة تشكل خطوات أسمى في سلم المعرفة الإنسانية. أما المطلق فلا يخضع لهذا التصاعد المعرفي لأنه الأول والآخر والباطن والظاهر وهو الحق. يمثل المطلق عالماً خارج عالم الطبيعة أو عالم الإنسان، ومحاولة الإنسان الصعود نحوه يمثل السعي التقدمي التجديدي.

الإنسان المؤمن هو الذي يسعى إلى فهم متزايد أو متصاعد للحق. وقد أمر الله المسلمين قائلاً :" قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون"[15] والمسلم يدرك نسبيته ومحدوديته حيث قال له سبحانه : " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل

الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون"[16] على المسلم أن يبقى مواصلاً جهوده المعرفية لأنه بذلك يأتيه يقين متصاعد بأن إيمانه حق. أي أن التوسع المعرفي بآيات الله، أو توسيع الوعي الإنساني بما هو موضوع هذا الوعي يؤكد صحة الإيمان بما هو فوق الوعي. ومهما ظن الإنسان أنه أحاط بالأمور وعرفها فإنه لا يخرج عن دائرة الظن، وعليه أن يغالب ظنه باستمرار مما يوسع دائرة معرفته. وبذلك يصبح المؤمن أكثر قدرة على مجادلة أهل الباطل والضلال.

نخلص من هذا أن الجدل التصادمي بين الحق والباطل مستمر. أهل الحق يجمعون الأسباب لإحقاق الحق وأهل الباطل يجمعون أسبابهم لدحر الحق. وقد يأخذ الجدل التصادمي أشكالاً عدة لكن كل طرف يهدف إلى إلغاء الآخر. وكما رأينا في التجربة التاريخية، قد يأخذ الجدل شكل الحرب أو التآمر أو الثورة، الخ. إنه يأخذ أشكالاً متعددة ومتنوعة ومتطورة مع الزمن. على هكذا خلق الله حياة الإنسان الدنيا، ومن خلاله تتحدد قوى الخير وقوى الشر .

نقطة هامة جداً أن هذا الجدل التصادمي لا يقوم على الكبت وإنما على الإلغاء. الكبت لا يعني الإلغاء وإنما التورية أو التغطية لأي سبب من الأسباب كالخوف أو البطش، الخ. فحتى يتم هذا الإلغاء لا بد للحق والباطل أن يكونا باديين، وإلاّ يبقى العنصر المكبوت طاقة كامنة يمكن أن تظهر بأي لحظة، وقد يكون ظهورها المفاجئ أخطر بكثير من المواجهة الندية. فقد يظن طرف أنه قضى على الطرف الآخر بسبب غياب النشاطات المضادة، لكنه من المحتمل أن يكون الطرف الأول قد اتخذ إجراءات جعلت نشاطات الطرف الآخر غير ممكنة أو شكّل القيام بها خطراً كبيراً، فلجأ إلى عمل غير العمل الظاهر، كالعمل السري أو الباطني. وهنا يظن

الطرف الأول أنه تغلب على خصمه وارتاح، بينما يعمل خصمه بطريقة مغايرة سرعان ما تقلب الأمور. وإذا تمعنا في القرآن الكريم لا نجد فيه أبداً ما يدعو إلى الكبت كوسيلة لقهر الباطل والتغلب عليه. على العكس، يطلب القرآن البرهان على قول المخالفين وادعائهم. قال تعالى :" وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"[17] وقال : "أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"[18] وقال :" ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون" [19]

لم يقل سبحانه وتعالى اكبتوهم أو امنعوهم من الحديث ولكن طلب برهاناً على الادعاءات. المجال مفتوح تماماً أمام ما يطرحه غير المؤمنين وذلك ليجد الحق فرصته العلنية في مواجهة الباطل. وحذر سبحانه وتعالى الذين لا يأتون ببرهان قائلاً :" ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون" [20] حتى أن الله سبحانه لا يقدم الحق للناس بدون برهان حيث قال : " يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً" [21] إنها مقارعة الحق للباطل : الدليل بالدليل والحجة بالحجة والبرهان بالبرهان حتى يتبين الحق للناس ويزهق الباطل. "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً"[22] أما أهل الباطل فلا يقفون متفرجين صامتين بل :" وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق .... "[23] لو شاء الله لكبت أهل الباطل أو لعطل ألسنتهم وقواهم التي تمكنهم من مقارعة الحق، لكن هذا يخرج عن نطاق الدين الإسلامي الذي يتعامل مع واقع الحياة ويضع الحلول العملية لمواجهة المسائل المختلفة. الصراع الفكري قائم بين أطراف عدة في الحياة الدنيا ووجهات النظر متباينة والرؤى للأمور متضاربة، وتفوق طرف على آخر خاضع للاجتهاد والسعي والعمل وليس لقوى فوقية تفرض نفسها فتكبت طرفاً لصالح

طرف آخر. فحتى يظهر الحق مثبتاً نفسه لا بد له من مقارعة الباطل حتى يكون في ذلك بينة عملية للناس. لقد طلب الله سبحانه البراهين وقدم في المقابل براهين.

حرية الإنسان

الإسلام هو دين التحرير الذي يبعد الناس عن عبادة الناس أو مصالحهم وأهوائهم إلى عبادة الله وحده. أنه ثورة على العبودية والظلم والاستعباد من أجل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. له حرية فحص المعلومات التي بين يديه وله أن يقرر فيما إذا كانت هذه العقيدة الإسلامية والشريعة تخرجه من الطوق الذي هو فيه إلى عالم الحرية.

المسؤولية والالتزام في الإسلام تقومان على حرية الاختيار ولا يتأكدان إلا بها. لا تنعقد المسؤولية ولا يوجد التزام بدون حرية. إذ كيف نبرر مسؤولية شخص عن عمل ما وهو لا يملك حريته في العمل ؟ وكيف نطلب منه التزاماً بمبدأ أو موقف وهو مكبل؟ الحرية في الاختيار هي القاعدة أو الأرضية التي تجعل المرء مسؤولاً عن عمله وتضعه أمام التزاماته النظرية والعملية. وقد أوضحت في الفصل الثالث مفهومي المسؤولية والالتزام في الإسلام وكيف أن حساباً ينتظر الإنسان يوم القيامة. هناك ميزان توزن فيه أعماله وأفعاله وأقواله وهي ناجمة عن حريته في اختيار ما يراه مناسباً والسير في الطريق التي تلائمه. فهل يعقل حساب شخص على عمل أجبر عليه ولم يكن له فيه خيار؟ وهل يعقل حساب شخص لا حرية له في ممارسة التزاماته؟

حرية الاختيار هي التي تمنح الشخص فرصة اختيار الإسلام، وهي التي تقود إلى التمييز بين المسلمين وغير المسلمين. وهي أيضاً التي تمنح المسلم فرصة اختيار

درجة الالتزام والرقي بوعيه وقدراته المعرفية. هل يبقى المسلم ضمن دائرة الإيمان بما هو فوق وعيه الإنساني أم يترجم هذا الالتزام بالتزام عملي يجعل العالم الخارجي داخل وعيه بصورة متصاعدة، وبالتالي ترتقي معارفه وإحساسه الإيماني بالوجود فوق الوعي؟ بالحرية يستطيع الإنسان نقل إيمانه النظري إلى ممارسة عملية متوازنة مع مستويات الحق التي قررها لنا سبحانه وتعالى. بهذا يتميز المسلم عن آخر حيث تتفاوت التجارب العملية ومعها درجة الوعي التي تؤثر بمدى استيعاب الإنسان لمختلف المتغيرات والعلاقات المتشابكة وكيفية تحقيق درجات أسمى من المعرفة بالوجود حوله.

من خلال الالتزام المستند على الحرية يبدأ يعي الإنسان وحدته مع الكون وتواصل الذاتي مع الموضوعي واتحاد المتعدد ليكون كلاً واحداً. من خلال الالتزام يخرج من بوتقة الكهنوت والإيمان الاستسلامي إلى ميدان العمل والإيمان التأكيدي الذي يقود إلى التعرف على قدرة الله وعزته وحكمته. أنه يخرج من الخضوع اللافعلي الذي لا يطور من وعيه ولا يرفع من درجة التزامه إلى الخضوع اليقيني الذي يعزز لديه الالتزام ويطور تذوقه للحرية. يبقيه الخضوع اللافعلي في زاوية منعزلة ظاناً في نفسه التبعية والهامشية بينما يخرجه الخضوع اليقيني إلى عالم النشاط والتأثير في المحيط والبيئة. يعزله الأول عن العالم خارج ذاته بينما يوحده الثاني معه.

وحرية الاختيار أيضاً تعتبر أرضية أساسية للتقوى التي يتميز بها المسلمون عن بعضهم بعضاً. فهناك من يقوى على تقوى شخصية ضمن حيز الشعائر الدينية، وهناك من يوسع دائرة تقواه إلى التقوى الاجتماعية، وهناك من يتفوق ليمتاز بالتقوى الاستنهاضية. وهؤلاء جميعاً على درجات متفاوتة وتختلف موازينهم يوم القيامة. فإذا كان الله سبحانه قد خلق كل إنسان وحدد له سير حياته سلفاً ومختلف

أعماله وأقواله وكان تحديده قدَراً، فهل بالإمكان إيقاع الحساب؟ طبعاً لا. الله جل في علاه مطلق الحكمة، مطلق العدالة، ولا يحاسب الناس إلا حسب ما يختارون من أقوال وأفعال. وقد بينت في صفحات الفصول السابقة كيفية تعامل القرآن مع مختلف المواضيع الحياتية التي يملك الإنسان حرية الاختيار فيها .

هذا ولا تنحصر حرية الاختيار فقط فيما أفاد القرآن الكريم من نشاط في الحياة الدنيا، بل تمتد لتشمل خلق الإنسان. لقد ميز الله الإنسان بقدرة التمييز فألزمه بحرية الاختيار. وأكبر دليل على ذلك هو آدم الذي تعلم الأسماء كلها واستمع إلى تحذير الله سبحانه بعدم الاقتراب من الشجرة. التحذير لم يكن قدراً إلهياً، ولو كان قدراً لكان نافذاً لا تمكن مخالفته. لكن آدم خالفه لأنه تصرف حسب حريته الملازمة لقدرته على التعلم. قال تعالى :" وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين." [24] وقال لآدم محذراً من إبليس : "فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى."[25] لكن الذي حصل أن آدم اختار طريقاً آخر : "فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى."[26]

أخرج الله آدم من سلوك القدرية إلى عالم الاختيار وبقي السلوك الإنساني قدريا ضمن حدود العقل الذي منحه الله الإنسان. وبهذا اختلف الإنسان عن الحيوان الذي يقوم بحركات ضمن أنماط ثابتة وقد حددت خلقاً. لا يغير الحيوان سلوكه أو رد فعله لأنه خاضع لبرنامج طبيعي وهو وجزء من تركيبه الحيواني. أما البرنامج الإنساني، إن جاز لي قول هذا، فقد تم استبداله بحيث وجد جهاز آخر مكان الجهاز القَدَري النمطي بحيث يحوي في داخله قَدَراً من نوع آخر يقوم على عدم النمطية.

أي أنه جهاز يتيح المجال أمام الإنسان لفحص المعلومات والتعرف على الخيارات والاختيار من بينها. وقد مارس آدم مباشرة قدرته هذه.

والإنسان مختلف عن الحيوان أيضاً في قواه في الحياة الدنيا. بالإضافة إلى العقل هناك قوى أخرى تعمل في الإنسان تؤثر على أوضاعه مثل المشاعر والعواطف وعليه أن يحكم عقله بها. حتى أن الذين يتجاوزون الطاقات التي منحهم الله يعاقبون يوم القيامة وذلك بقوله :" ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون ."[27] وهكذا نرى أنه بدون حرية الاختيار تنتفي المسؤولية والالتزام، وتنتفي التقوى وتنتفي أيضاً القدرة التمييزية، وإن بقي تفكر وتعقل فهما نظريان رومنسيان بدون واقع عملي، وتنتفي قوى النفس المتمثلة بالسمع والأبصار والأفئدة وما يصاحبهما من تفاعل إنساني. وتنتفي أيضا المفارقة بين المسلم وغير المسلم، وينتفي الثواب والعقاب، وينتفي يوم الحساب. وبهذا يكون الإيمان خيالاً أو شطحات رومانسية أو مجرد هروب من واقع مؤلم إلى عالم غير موجود. أنه إيمان منسلخ عن واقعه المادي وعن ضبطه العقلاني وعن تعاليم السماء، وينتهي إلى مجرد اغتراب إنساني يعبر عن عجز عن التعامل العملي مع الوجود واستسلام لقوى وظواهر خارجة عن الذات. أي ينتهي إلى مجرد وثنية تعبد قوة مجهولة أو ظناً وهمياً لا يدفع باتجاه أي سلوك عملي.

إذا كان السلوك نمطياً يخضع لمحددات سابقة وأنه ليس للإنسان أن يختار، فما الفائدة من التعاليم السماوية، ولماذا الرسل والأنبياء؟ الرسالات السماوية موجهة للناس لأنهم يملكون القدرة على التمييز واتخاذ القرار ولهم أن يختاروا بين الكفر والإيمان، بين العمل الشرير والعمل الصالح. فلو شاء الله لجعلنا أمة واحدة ولنزع منا تلك القوة التي أهلتنا للمعرفة وتكديس المعرفة وتعميق التجربة. وهل كان ذلك

سيريحنا من الكد والكبد والمعاناة والهم والحزن؟ ربما، لكن دون أن ينتظرنا شيء آخر فيما بعد. وهل كان من الممكن أن يكون هناك مسلمون وكفار وأصحاب حق يقارعون أصحاب الباطل؟ يبدو أنه ما كان يمكن أن يكون لو كنا أمة واحدة.

حرية الاختيار ملازمة لخلق الإنسان والنفس ولسعي الإنسان في الحياة الدنيا. إنها ركن أساسي في الثواب والعقاب. لقد منحنا الله القدرة على الاختيار وبالتالي منحننا حق الاختيار. الحق ممنوح بملازمته للخلق وبتحديد المسؤولية والالتزام والتقوى وبالحساب يوم القيامة. وكل من يحرم الإنسان هذا الحق أو يمنعه عنه إنما يتعدى حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لأنه أوقع نفسه في معصية سيحاسب عليها. وحرية الاختيار هذه شاملة حيث تشمل الإيمان والكفر، النشاط والكسل، القول والصمت، القعود والحركة، التوكل والتواكل، الخ، وإنما بدون عدوان على الآخرين أو سلبهم حرياتهم وحقوقهم.

الحرية بالنسبة للمؤمن واضحة تماماً وهي تدور ضمن عمل التقوى وقدرته على هذا العمل. المؤمن ملتزم بقواعد الإسلام وتعاليمه وضوابطه، وهو مؤمن باختياره هو وملتزم باختياره هو. الإسلام دين العدل والقسط بين الناس، والالتزام جزء لا يتجزأ من النظرة الشاملة للعدالة. فمن التزم بالتعاليم السماوية يكون قد التزم بعدالة السماء حتى لو لم تكن لديه شمولية استيعاب هذه العدالة. وممارسته للحرية تبقى ضمن الميزان بدون زيغ أو طغيان وبدون إيقاع ظلم لا بنفسه ولا بغيره. وكلما تعمق التزام المؤمن صعد في مراتب التقوى حتى يصبح مساهما بفعالية في بناء الأمة الإسلامية التي تعتبر السياج الحامي لكل القيم والمعايير الإسلامية.

لكن هذه الحرية لا تعني تطابق مفاهيم الأشخاص وسلوكهم، إذ أن المسلمين ليسوا مجرد نسخ كربونية أو عقول آلية مبرمجة تخضع لقواعد تخلو من الحيوية

والحركة. الإسلام دين حركة وسعي وتقدم. أنه دين حركة في مجال الفكر والعقل وفي مجال النشاط الاقتصادي والبناء المادي، وفي مجالات النفس وترويحها وسعادتها، وفي مجال العلم والأدب، الخ. أي أن المجال مفتوح للإبداع، بل أن الإبداع والابتكار والاختراع عبرة عن روح الإسلام الذي يعمل على نقل الإنسان باستمرار إلى مراحل متقدمة في مختلف الميادين. ولهذا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وكان العلم قاعدة راسخة في بناء الشخصية الإسلامية. أي أن الحرية الإسلامية هي التي تدفع الشخص نحو تقديم الجديد ضمن قاعدة الإيمان وضرورة انعكاسها عملياً على أرض الواقع. وبهذا يكون المسلم قدوة للآخرين ومثالاً مما يعزز مكانة الإسلام في النفوس ويقنع الآخرين من غير المسلمين بالحق.

الحرية تفتح المجال أمام النجاح لأنها تطلق العنان للقدرات والطاقات الإنسانية لتعبر عن نفسها وللبحث عن مخارج ومداخل للتأثير والإنتاج. أما الكبت والنمطية فيغمان النفس ويعطلان العقل ويقهران القدرات والطاقات ويثبطان العزيمة ويجعلان من الشخص أداة غير مبدعة وخاضعة للغير. إنهما وسيلتان فعالتان في صنع الإنسان المتخلف غير القادر على العطاء أو التفكير ويفقدانه نفسه والشعور بذاتيته. وبالتالي لن يكون مفيداً لا لنفسه ولا لغيره، ويصبح عالة على الغير سواء من ناحية الفكر أو الإنتاج.

المسلم مأمور بالتعبير والحديث عن الحق والهدى وقد نُهي عن الكتمان. على المسلم أن يقرأ ويدرس ويعلّم ويتعلم وأن يكتب وينشر ويجهر بأنواع المعرفة التي تخدم الجدل الداخلي والحوار بين المسلمين وتعزز موقفهم في جدلهم التناقضي مع أهل الباطل. كبت الحق عمل غير إسلامي، وحجب المعرفة ليس عملاً إيمانيا. وقد حذر سبحانه وتعالى الذين يكتمون الحق قائلاً: " أن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم

اللاعنون". [28] وقال :" إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم" [29] إذا كان هذا هو مصير من يكتم الحق، فما هو مصير الذي يكبت من يعرف الحق ويمنعه من الجهر به؟ لا شك أن ذلك عمل مرفوض إسلاميا ولا يمكن التعايش معه.

لكن ما هو أمر الشخص الذي يخالف رأيه رأي الحاكم أو الجماعة، هل له حرية التعبير والكلام، وهل تسري عليه قاعدة حرية الاختيار؟ سأجيب عن هذا خلال السطور القادمة.

من المهم ألا يفهم الحديث هنا على أن المسلم في جدل تصادمي مع غير المسلم تحت كل الظروف وفي كل الأحوال. فكرة الجدل التصادمي تنطبق فقط على مسألة الحق والباطل لكنها لا تنسحب بالضرورة على مختلف مجالات الحياة. فهل من الممكن أن يدخل المسلم في جدل تصادمي مع غير المسلم حول أسلوب زراعي حديث من شأنه أن يحسن الإنتاج الزراعي؟ وهل من الممكن أن يتصادما عقائدياً حول ممر جوي للطائرات المدنية؟ الخ. المسلم متعاون من أجل خير الإنسان ولا يقف حجر عثرة في وجه التقدم والبناء. وإذا فعل ذلك فإنه يكون قد خالف قاعدة إسلامية أساسية وهي البحث في آيات الله التي تقود إلى تقدم الإنسان والى تبيان قدرة الله عز وجل وإظهار الحق. وهذا أصلاً أحد أسس ممارسة العقلانية. قال تعالى: " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون." [30]

حتى أن هذا يقودنا إلى التساؤل حول من هو أكثر عقلانية أهو المسلم الذي لا يبحث في خلق السموات والأرض أم غير المسلم الذي يبحث ويكتشف ويقدم الاختراعات التي تعود على الإنسانية بالفائدة؟ يبدو بالقطع أن غير المسلم أكثر عقلانية وأكبر قدرة على كشف حقائق الكون، لكن مشكلته، من الناحية الإسلامية، تبقى في كيفية توظيفه للحقائق. إنما العقلانية أقرب إلى الفكرة الإسلامية من غيابها.

أما بالنسبة لغير المسلم فإن حريته أيضاً مهمة في دفع الفكرة الإسلامية إلى الأمام. فمن ناحية، يمنحه الإسلام أجواء الراحة النفسية حتى لا تتطور لديه مواقف معادية للإسلام. نفسه وأهله وبيته ومصالحه في حماية الإسلام، وتطبق عليه مبادئ العدالة القضائية كما تطبق على المسلم دون تمييز. وحريته في الاختيار ملازمة أيضاً لخلقه لأنه لا يختلف خلقاً عن المسلمين. فهو يفكر ويعقل ويملك قدرة التمييز. لقد منحه الله طاقة لا بد أن تجد طريقها نحو التعبير مما يتيح المجال أمام المسلمين لمقارعة ما يطرح من أفكار مخالفة للإسلام ومتمشية مع الباطل. ما يطرحه غير المسلم يفتح آفاق التوسع المعرفي عند المسلمين ويطور قدراتهم على تطوير أساليبهم في مواجهة الباطل ومن يمثلونه. فبدل أن يكون المسلمون بعيداً عن حلبة الصراع الفكري والميداني والمواجهة، تفتح حرية الاختيار أمامهم الباب واسعاً لكي يثبتوا الحق ويدحروا الباطل، فيخلقوا المثال والقدوة ويتطور أدبهم المكتوب والمسموع والمرئي في سبيل إقناع الناس بدين الحق، وفوق ذلك يتطور عملهم الذي يشكل في النهاية الدليل المادي القطعي على التزامهم وجديتهم.

المسلم لا يخشى حرية غير المؤمن لأنه هو الأقوى وهو الذي يملك الحجة المقنعة والبرهان. أما غير المؤمن فحجته ضعيفة حتى لو استطاع إقناع بعض الناس بها إلى حين. المسلم مسلح بالإيمان أولاً، وهذا ما يمنحه الشجاعة والطمأنينة، وهو

متمسك بالفضيلة والأخلاق الإسلامية مما يمنحه ثقة الآخرين حتى لو لم يؤمنوا بما يؤمن به. أما غير المؤمن فيجري وراء سراب ويتمسك بأوهام لا يستطيع أن يأتي بأدلة تثبتها. والمسلم معه الله ولا يخشى في الحق لومة لائم ." .... ولينصـــرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز."[61] وقال :"إن ينصركم الله فــلا غالــب لكــم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون". [62]

بمعنى أن لغير المسلم حريته التي تتيح المجال أمام المسلم لتنفيذ الأمــور وإظهــار الحقيقة للناس، وإذا عمل المسلم على كبت حريته فإنه يحرم الناس مــن الاطــلاع على طروحات قد تكون هامة في ترسيخ الإيمان، فضلاً عن أن كبــت الآخــرين يخرج عن نطاق الإسلام ويعبر عن ضعف المسلمين في المواجهــة أو تقاعســهم عنها. من يخشى حرية الآخرين إنما يخشى ضعفه، ومن يلجأ إلى أساليب الكبــت والقهر إنما لا يملك قدرة على الإقناع.

حرية العقيدة

تقول عائشة عبد الرحمن أن المرء لا يجبر على عقيدة أو إيمان لأن ذلك يجب أن ينبع من القلب والضمير وليس مجرد كلام يتم النطق به.[63] فالإسلام دين الحرية، أو حسب قول زينب رضوان بأن الحرية هي المبدأ الأول الذي يرسيه الإسلام وهي التخلص من مشاعر العبودية.[64] وتقول بأن لكل شخص الحق في إبداء رأيه عــن أي طريق شاء.[65] والمسألة لا تقف عند حرية إبداء الرأي، بل تقول عائشة عبــد الرحمن أن الإسلام يعطي أهل الكتاب حرية التدين.[66] وتستشهد على ذلك بالآيــة الكريمة : "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحــد ونحــن لــه مســلمون"[67] وبالآية: " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبــد إلا الله ولا

نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشـــهدوا بأنّا مسلمون."[38]

هذا بالنسبة لأهل الكتاب، فهل لغير أهل الكتاب أن يختاروا ما يشاءون وأن يجادلوا المسلمين بعقيدتهم؟ لا يوجد في القرآن ما يمنع غير أهل الكتاب من التعبيـــر عـــن أنفسهم عقائدياً، بل أن الله سبحانه وتعالى يدعوهم إلى تقديم الأدلة والبراهين كمـــا أسلفت سابقاً، ويطلب منهم دعماً لما يدعون، فيقول:" قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ."[39] وهذا يتمشى تماماً مع القاعدة الإسلامية :"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ..... "[40] وتعبر سورة الكافرين عـــن هذا الموقف الإسلامي في أن كل شخص وعبادته وكل واحد يعمل حسب ما يعتقد. "قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين".[41] وقد أنـــزل الله ســـبحانه وحياً ليطمئن الرسول عليه السلام ويقول بأنه لو شاء الله لجمع الناس جميعاً علـــى هدى، ولا داعي للحزن بسبب موقف يناقض الرسالة السماوية :" قـــد نعلـــم أنـــه ليحزنك الذي يقولون، فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحـــدون. ولقـــد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصـــرنا ولا مبـــدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين. وإن كان كبـــر عليـــك إعراضـــهم فـــإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية، ولـــو شـــاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين".[42]

ويؤكد القرآن الكريم عبر آيات عدة بأن على الرسول، وبالتالي على حملة الرسالة من بعده، البلاغ، ومن ثم كل شخص يتحمل مسؤولية نفسه. قال تعالى :"ولو شـــاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين".[43]

وقال :" ... فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد"[44] وقال :" فإن اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً، إن عليك إلا البلاغ... "[45]

يؤيد عدد من الكتاب المسلمين هذه النتيجة ويؤكدون على حرية العقيدة في الإسلام. فعلى سبيل المثال، يقول عبد الحميد أبو سليمان أن دولة الإسلام تضمن حرية العقيدة لغير المسلمين ولا يكره أحد منهم على دينه.[46] كذلك هو رأي عبد القادر عودة القائل بأن الإسلام أعطى حرية الاعتقاد وأن على المسلمين توجيه غير المسلمين بالحسنى ولا إكراه إن لم يقتنعوا. لكن على صاحب العقيدة الإسلامية أن يدافع باستمرار عن عقيدته. دفاعه هذا لا يعني إرغام الآخرين على الإسلام.[47]

عدم تدخل الإرادة الإلهية بكيف يتجه الناس عقائدياً ينسجم مع خلق الإنسان وقدرته على التعلم. فما دام الله قد خلق الإنسان بطاقات وقدرات مميزة وجعله قادراً على اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً، وحمله مسؤولية هذا القرار، فإن التدخل يصبح أمراً غير وارد. إنما أراد الله سبحانه أن يبين للناس طريق الصواب والحق وللنفس أن تقرر أي طريق تختار.

حتى أن المسألة لا تقف عند حرية الاعتقاد بل تمتد إلى المعاملة الحسنة وعدم الإساءة لغير المسلمين. إذ تقول الآية :" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون."[48] والآية هنا لا تفرق بين أحد من غير المسلمين سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم. المهم أن المسلم لا يحمل نوايا عدوانية ضد الناس غير المسلمين، وإنما يحمل دعوة الحق يقارع بها

الباطل. وإذا كان غير المسلم ولو كان كافراً غير مجابه للمسلمين ولا يعمل على إلحاق أذى بهم فله معاملة حسنة من قبل المسلمين ولا يؤخذ عليه في هذه المعاملة عدم إيمانه.

تؤيد هذا الموقف الآية الكريمة :"وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون." [49] الموقف الإسلامي لا يقتصر على مشرك أو كافر ضمن دائرة المسلمين بل يمتد إلى من هم خارج الدائرة ويتعرضون لمأزق فيلجئون إلى ديار الإسلام. يأمر الله بأن لا يحارَب هؤلاء ويعطي تبريراً بأنهم لا يعلمون. بمعنى أن الكفر ناجم عن جهل وعدم معرفة بآيات الحق. والمسلمون لا يعملون على إرغام من يستجير على قبول عقيدتهم، بل يتركونه ويعاملونه المعاملة الطيبة المتناسبة مع الإجارة. فإذا كان هذا هو أمر الله، هل يملك المسلمون أن يرغموا أحدا على الإيمان؟ ثم الذي يغفر هو الله سبحانه وليس أي أحد من المسلمين. قال تعالى :" ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء .... "[50]

والنتيجة أن غير المسلم في ديار الإسلام أو ضمن دائرة المسلمين ليس مرغماً على تغيير عقيدته. له الحرية في البقاء على دينه أو معتقداته، وله الحرية في ممارسة شعائره. له دين وللمسلمين دين. وما على المسلمين إلا دعوته وتبيان عقيدة الإسلام له، ومجادلته بالتي هي أحسن. أي أن حرية العقيدة في الديار الإسلامية واردة وهناك ما يكفي من النصوص لضمانها.

وهنا أجيب عن التساؤل الخاص بالرأي الذي يخالف رأي الحاكم أو الجماعة، هل لصاحبه حرية التعبير؟ نعم لهذا الشخص حرية التعبير. فإذا كان لغير المسلم حرية العقيدة والاعتقاد، وحرية خوض الجدل مع المسلمين، ألا يكون لمسلم يختلف في

رأيه مع المسلمين أو الحكام حول قضية حرية التعبير عن رأيه؟ بالطبع له ذلك، وكل محاولة لقمعه عبارة عن تجاوز لحدود الله ومن شأنها أن تلحق الضرر بالمسلمين. وعلى هذا يصبح رأي أحد الكتاب والذي يقول :" الإسلام منع الأخبار الكاذبة والآراء المضللة، وسمح للآراء الصائبة البناءة المقومة لاعوجاج الدولة والرعية" [61] مضللاً ويمكن استخدامه لتبرير القمع. حتى أن هذا الكاتب يذهب إلى القول بأنه لا توجد حرية عقيدة. [62] لكن مشكلة هذا الكاتب ومن هو شبيه به أنهم لا يعرفون ما هي الأخبار الكاذبة ولا الآراء المضللة، وهو لا يقول ما هي الآراء الصائبة البناءة.

لقد عانى العرب والمسلمون من حكامهم تحت طائلة هذه التعبيرات الفضفاضة التي تأخذ معاني مختلفة ومتعددة تبعاً للظروف والأحوال. فالحاكم فسر الكذب حسب مفهومه هو للصدق، وبنى الضلال بناء على ما ظن أنه الحكمة، وبرر الصواب بطريقة تنسجم مع أفعاله وأقواله، الخ. وما زال عدد من حكام العرب يتحدثون عن غوغائيين وفوضويين عند تبرير مواقفهم أو إجراءات قمعهم للجماهير. الإسلام ليس خاضعاً لأمزجة ولا هو تحت طائلة التعريفات التي تخدم مصالح الحكام، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال لنا أن هناك كفاراً ومشركين وضالين وأتاح لهم مجال المجادلة وطرح ما عنده من آراء، فهل يحق لأحد منا تجاوز أمر الله وتعاليمه؟ فإذا أراد مسلم أن يجتهد حول حرام أو حلال فإن عليه أن يكون دقيقاً متمعناً وحريصاً وألا يطلق الأحكام جزافاً. لقد عاش المسلمون قروناً من التخلف والجهل تميزت بأفكار غريبة انبثقت أساساً من عادات وتقاليد بالية، وحاول بعض المسلمين إلصاقها بالإسلام.

يُخرج الإسلام المسلم من دائرة الوصاية الفكرية ويأمره بالتفكر والنظر ويشجعه أن يبحث عن الأدلة والبراهين. بل أن القرآن الكريم توجه إلى غير المسلمين بأن

يحاولوا أن يأتوا بمثل القرآن أو بآية أو بعدة آيات. لقد أطلق القرآن عنان التفكير والتحدي الفكري لغير المسلمين فهل يحرم المسلمون من ذلك؟ إن الصاق تعبيرات قيمة مع الإقرار بالحرية الفكرية عبارة عن قتل لهذه الحرية ومحاولة لتعريف الحرية تعريفاً ضيقاً يتمشى مع وجهة نظر القائم على أمور الناس. عبارات مثل البنّاء والصحيح والمعقول قد تخضع في تعريفاتها للمزاجية والمصالح الشخصية والرؤية السياسية والاجتماعية الضيقة. من الذي يقرر فيما إذا كانت فكرة ما بناءة أم لا، ومن الذي يحدد الاتجاه الصحيح من الاتجاه الخطأ؟ وهل يملك أحد سلطة الهيمنة على تصنيف آراء الناس حسب هواه؟ أم أن الرأي غير القوي وغير المستند على حقائق يسقط من تلقاء نفسه؟ الرأي الضعيف لا يملك مقومات الصمود ولا توجد حاجة لوصاية كي يتلاشى. وعندما تكون هناك وصاية فكرية فإن أصحابها هم الضعفاء وليس أصحاب الرأي الآخر لأنهم بوصايتهم يحاولون الهروب من المواجهة الفكرية وتغليف هروبهم بالحصر على الصالح العام والنظام وحبهم للناس.

لقد عانت الشعوب والأشخاص من العبارات المنمقة الفضفاضة التي جاز تحت مظلتها عمل الكثير من الموبقات بحق الإنسانية. قُهرت شعوب وعُذب أشخاص وقتلوا وهُدمت بيوت ويُتم أطفال وشُتتت عائلات وسُفكت الدماء بحجة المصلحة العامة ومستقبل الأجيال ورفعة شأن الدولة وما شابهها من حجج. الإسلام لا يقبل بهذا ولا يتساوق معه ولا يبرره وغير مستعد لتطويع التعاليم للإفتاء بتحليله. فتح الإسلام الباب أمام الناس ليحدثوا بما عندهم وبما يرون أنه الصحيح، وإذا كان هناك فكر هدام فهو فكر من يفرض الوصاية على فكر الناس، وإذا كان هناك نقد هدام فهو نقد الذي يقف بوجه الانتقاد .

الأمة الإسلامية أقوى من المنع والكبت لأنها أمة تحمل رسالة حق وهي قادرة على مقارعة الحجة بالحجة، وإن فشلت فإن الله ناصرها لأنها المدافعة عن الحق. ولهذا لا تخشى الأمة رأياً أو قولاً أو كتاباً أو مقالاً. الأمة الحية هي التي تفند الآراء والحجج وتقدم للناس الرأي المستند على معرفة وعلم. فقط الأمم الخاوية والحكومات الظالمة التي تلجأ إلى قمع الآراء ومنعها وسن القوانين لمحاكمة القائلين بها. هذه أعمال الضعفاء الذين يرتجفون خوفاً على كراسي حكمهم أو على مصالحهم الدنيوية. المسلمون يفسحون المجال لأن في حرية الرأي فرصتهم لتقديم أدلتهم وبراهينهم ودحض الباطل، وإذا كان من بين المسلمين من يرى عكس ذلك فإن ذلك رأي خاص لا يعبر عن موقف الإسلام حيال تحرير الإنسان.

الرأي الضال لا يضير الأمة وإنما يمنحها فرصة الرد عليه والعمل لدى أصحابه لقبول الدعوة الإسلامية من خلال الحجة. والرأي الضال يعبر أصلاً عن رفض الحرية لأن صاحبه يقبل بعبودية غير عبودية الله. فهل تدفعه الأمة الإسلامية إلى زاوية من القهر بحيث يمعن في قبوله للاستعباد أم من واجبها أن تأخذ بيده نحو الحرية؟ على أية حال سأعود إلى هذه المسألة تفصيلاً فيما بعد .

المبادرة الشخصية

بما أن المسؤولية شخصية وكل واحد يتحمل مسؤولية أعماله، ومُنح كل شخص القوى التي تؤهله للتمييز والاختيار فقد فُتح المجال أمام المبادرات الشخصية التي يستطيع من خلالها كل شخص أن يجتهد ويدبر الأمور ويقوم بالأعمال التي من شأنها أن ترفع درجة التقوى لديه وتحسن من وضعه المادي الشخصي وتسمو بطاقاته الإلتزامية. الباب مفتوح للقيام بمختلف الجهود والنشاطات التي ترتقي بالمرء دون أن يخترق قواعد الالتزام والتقوى. وحسب العمل يكون أجر المرء

وتكون درجته. قال تعالى :" ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمـــالهم وهـــم لا يظلمون." [63] وقال :" ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملـــون"[64] ورفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات.

لكن هل بإمكان المرء أن يبادر إلى أي نشاط يشاء. المسلم بالطبع لا يبادر إلى أي شيء يخالف التعاليم السماوية لأنه ينظر إلى الفوز العظيم في الحياة الآخرة. ضمن هذا الإطار يتخذ المسلم مبادراته. لكن غير المسلم غير متقيد بتعاليم السماء، لكنـــه إن عاش ضمن الأمة الإسلامية، فهو يعرف أن هناك تشريعات وقوانين تحكم الأمة ولا بد أن يلتزم بها حتى لا يسيء للأمة ككل. فحرية المرء في المبادرة ضمن حيز شخصي أو ضمن مجموعة غير ملتزمة بقواعد تختلف عـــن تلـــك التـــي يمكـــن ممارستها ضمن أمة. للأمة التزاماتها ورؤيتها، وأي تغيير في ضوابطها وأنظمتها ينجم عن تفاعل الآراء والاجتهاد، وعلى كل شخص أن يلتزم دون أن يفقد حقه في استمرار النقاش والجدل والحوار .

لعل القضية الاقتصادية هي أهم ما يبرز عند مناقشة مســـألة المبـــادرة الشخصـــية والتي تسمى في أغلب المراجع المبادرة الفردية . مع هذه القضية وفي التلازم معها تظهر مسألة الملكية الخاصة . تأخذ المبادرة الشخصية أهميتها الخاصة فـــي هـــذه المرحلة التاريخية من كونها أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها النظام الرأسمالي والذي يعتبر أكثر نظام اقتصادي شيوعا في العالم الآن وأكثرها فعالية في تحقيـــق نمو اقتصادي سواء على المستوى القومي أو الدخل الشخصي . يعزى النمـــو فـــي أغلب الأحيان إلى طريقة عمل النظام التي تعتمد المبادرة الفردية التـــي تتضـــمن الحوافز اللازمة لتنشيط الفرد الذي يعمل من أجل صالحه مما ينعكس إيجابا علـــى المصلحة العامة . وحيث أن هذه قضية أساسية تدخل ضمن قيم الحرية التي تلقـــي بثقلها على ساحة العلاقات الإنسانية ، فإن الإسلام مطالب أيضا بإعطاء الإجابـــات

حولها ، أو على الأقل تبيان موقفه من المبادرة الشخصية على المستوى الاقتصادي.

إذا عدنا إلى قضية المسؤولية في الإسلام والتي تفترض حرية الإنسان الشخصية فإننا نستنتج أن برمجة حياة الإنسان ونشاطاته من قبل شخص آخر أو جماعة أو دولة يخالف تماما الاعتبار القائل بأن الإنسان مسؤول عن عمله وسيحاسب عليه يوم القيامة . وإذا تمت برمجة حياة الإنسان فإنه يفقد حريته لصالح جهة خارجية تفرض سيطرتها عليه وتجبره على القيام بتلك الأعمال التي يحددها البرنامج . هذا بالطبع لا يحرر الإنسان من مسئوليته نحو انتزاع حريته ، لكنه في نفس الوقت لا يوفر الجو المناسب الذي يفترض الإسلام وجوده لكي يكون المرء مسؤولا عن كل ما يصدر عنه من أفعال . البرمجة هي ليست من الإسلام ولا تفسح المجال لقيام حياة إسلامية صحيحة . في ظل هذا الوضع تتوجه جهود الإنسان نحو البحث عن مخارج لتحقيق الحرية بدل التركيز على تنفيذ التعاليم السماوية التي تقيم حياة إسلامية . أي أن برمجة الحياة الاقتصادية للإنسان غير مقبولة إسلاميا من هذا المنظار .

يتطلب الإسلام التقوى وهي تشمل الأمانة في البيع والشراء والإنفاق في سبيل الله وإيتاء الزكاة والصدقات . وهل من الممكن ممارسة هذه الفضائل في ظل البرمجة الاقتصادية والتي تحد في الغالب من النشاطات الشخصية التي تمايز بين الأشخاص وتعمل على إقامة قوالب شخصية تقترب من التماثل؟ تقتضي ممارسة الفضيلة أجواء يمكن من خلالها ممارستها ، والفضيلة بحد ذاتها ممارسة شخصية تتم من خلال حوافز شخصية . بمعنى أنه لا يمكن أداؤها في غياب الحوافز ، يصعب التفريق بين فاضل وغير فاضل في غياب الممارسة التي تعتبر المحك العملي

للتمييز . فأين هي مراتب التقوى ، وكيف يمكن أن يصعد الإنسان بالتزامه نحو قضاياه الشخصية والعامة ؟

فضلا عن أن الإسلام قدر العمل وحض عليه وأمر الناس بالسعي والتمتع بنعم الله عليهم . وعلى قدر العمل والجهد والتعب يجني الإنسان . ولذلك لا يتساوى من يجتهد ويكد مع المتواكل والكسول ، كما لا يستوي من يتعلم مع من يفضل البقاء في الجهل . الناس يختلفون بطموحاتهم وطرق تفكيرهم وتطلعاتهم وآمالهم . برمجة حياتهم تقضي على هذه الاختلافات فتكافئ الكسول والخامل واليائس وتعاقب النشيط والطموح ، وتؤثر سلبيا وبشكل حاد على الدوافع الشخصية نحو البناء والتقدم مما يلحق أضرارا بالغة بالمجتمع أو الأمة أو الدولة . لهذا لا يقبل الإسلام تقييد حرية الشخص وسلبه إرادته حتى لا تكون هناك حيلولة أمامه لتحقيق نجاحات على المستويين الشخصي والعام .

لكن يجب ألا ننسى أن مبادئ التقوى تتطلب عينا تسهر على المصلحة الشخصية والعين الثانية تتطلع نحو المصلحة العامة . المؤمن يقوم بالعمل وفي ذهنه معيار الأجر لأن هدفه النهائي هو تحقيق الفوز العظيم في الآخرة . أعماله لا تنفصل عن التقوى ، ويعمل دائما على الالتزام بطاعة الله وأوامره حتى لا يتحول عمله إلى غثاء يؤدي فقط إلى تمتع بنعم دنيوية مؤقتة . أي أن عمل المسلم الاقتصادي ليس استغلاليا بحتا ، وإنما هو استغلال للموارد ، وليس للإنسان. إنه يؤدي إلى تحسن الأوضاع الاقتصادية له وللناس أيضا وإنما دون الإخلال بقواعد الاعتدال في الاستغلال . يلتزم المسلم بالمعايير الإسلامية التي من شأنها رعاية المسلم والأمة مثل الاستغلال الأمثل للموارد وإعطاء الأجور "المعقولة" حسب الزمان والمكان ، والمساهمة في محاصرة الفقر ، الخ . أي أن هناك حوافز دنيوية يوفرها الإسلام وحوافز أخروية ، وهي تتفاعل معا بطريقة لا يهمل المسلم دنياه ولا يغمض عينيه

عن آخرته . أو كما قيل" اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" . إنها عملية توازن بين الدين والدنيا ، بين المسلم والأمة ، بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة . قال تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين". [55] وقال: " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون". [56] ارتبط التنعم والتمتع بعدم العدوان والشكر والعبادة . وارتبط أيضا بقول الله : " والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم". [57] وبقوله : "... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم". [58].

يغفل بعض الكتاب المسلمين هذا التوازن ويدفعون الأمور باتجاه ما يسميه بعضهم بالفردية حتى تبدو وكأنها مطلقة. فمثلا يقول أحدهم : " فإن الإسلام يعتمد على الكيان الفردي وعلى الفرد في تحقيق المصالح الاجتماعية والعامة . وتقوم الدولة أصلا بدور إجبار الأفراد على ذلك ... وأما النظم الجماعية الحديثة فتحقق أهدافها بأداة جماعية هي الدولة والملكيات التعاونية" . [59] لا يوضح الكاتب كيف تقوم الدولة على إجبار الشخص لأن يكون فرديا. المهم أن الشخص لا ينفصل عن الناس خلْقا . وذلك كما أوضحت في بداية الكتاب ، ولا يستطيع أن يشق طريقه الخاص بمعزل عن الآخرين . التنظيم الإسلامي سواء كان اجتماعيا أو اقتصاديا ينسجم مع النظام الكوني ومع النظام الخلقي للإنسان الذي صهر معا قوى مختلفة موجودة في الإنسان وعمل على تفاعلها بتوازن .

لكن هل يلغي حرص الإسلام على المبادرة الشخصية الملكية العامة نهائيا أو إقامة تعاونيات ؟ بالطبع لا . الأمة مسؤولة عن أبنائها وهي تعينهم كما هم يحرصون عليها ، ومن خلال الدولة تقوم مؤسسات ترعى مصالح الناس المختلفة الصحية منها والتعليمية الاقتصادية ، الخ . للأمة وظائف كما للمسلم وظائف ، وقد تجد

الأمة أن من صالحها إقامة مؤسسات عامة ، استحداث بعضها أو إلغاء بعضها. لكن المهم أن تحرص على مبدأ المبادرة وعلى مصلحة المسلمين عامة . هذا هو التوازن الذي لا يدفع باتجاه الزيغ أو الطغيان ، فيبقي على الأمة أمة وسطا ملتزمة بما قال الله فيها بأنها خير أمة أخرجت للناس .

تقع المبادرة الشخصية ضمن دائرة الحرية الشخصية التي تمايز بين شخص وآخر، وهي الحرية التي يستعملها الشخص في رقيه في مراتب التقوى . أي أن من حرية الإنسان الشخصية إسلاميا أن يعمل حسب متطلبات التقوى الاجتماعية والاستنهاضية ، وهي ممارسة تقع ضمن التعبير الطبيعي عن الإنسان من حيث أنه بالطبيعة ليس فردا . فعندما يراعي الشخص الصالح العام في مبادراته الشخصية فإنه لا يضحي بحريته الشخصية وإنما يكون منسجما معها. وما دام هدف المسلم هو تحقيق الفوز العظيم فإن مبادراته الشخصية التي تراعي مختلف مستويات العمل هي التي تؤدي إلى الهدف . بإمكان الشخص ألا يعير انتباها لأي مصلحة سوى أنانيته وبإمكانه أن يقول بأن هذه حريته ، لكنه من الناحية الإسلامية ليس حراً لأنه يحاول أن يعيش بتناقض مع المقومات الخلقية للاجتماع الإنساني ، ولأنه يعيش تحت عبودية أنانيته . أنه يقع بذلك أسيرا لتمرده على الطبيعة التي فطر عليها وعبدا لشهواته التي تسلم قواه العقلية لقوى تقييد حركته و بالتالي المبادرات التي يصر على أنها جزء من حريته .

الإرهاب الفكري

على الرغم من أن مصطلح الإرهاب الفكري غربيي وليس إسلامياً ، إلا أننا نستعمله تجاوزا . فالإسلام لا يستعمل هذه الكلمة للدلالة على ما يعنيه الغرب بها . طبعا المسألة بحاجة إلى بحث ونقاش طويل لا مجال له هنا . لكن باختصار ،

ينظر الإسلام إلى مسألة إرهاب العدو على أنها قوة ردع في مواجهة الأعداء ، وليس قوة تخويف من أجل إجبار الناس على التظاهر بالإسلام. لا ينظر الإسلام إلى الأمر على أنه محاولة لقهر الناس العاديين أو كبت الأشخاص وإنما إظهار قوة الإسلام أمام أناس يناصبون المسلمين العداء. أما قهر الأشخاص والضغط عليهم بوسائل رزقهم أو غسل أدمغتهم أو تقديم الرشاوى لهم وما شابه ذلك من وسائل قهرية ، فإن الإسلام لا يتعامل بها و لا يقرها. وعليه فإن طرح المسألة هنا لا يعني أن الإسلام يقر بالتعبير ويأخذ به ، وإنما يطرح فقط لغاية النقاش حسب المفهوم الذي يروج له الآن خاصة في الأوساط الغربية.

نستطيع أن نستنتج مما سبق موقف الإسلام من قضية عامة تؤثر على الأشخاص والجماعات في مختلف أنحاء العالم وهي الإرهاب الفكري. يقع الكثير من الناس تحت ضغط الإرهاب الفكري بحيث يحول بينهم وبين التعبير عن آرائهم ومواقفهم ويعمل على إخضاعهم لوجهة نظر معينة أو الصمت حول مسائل محددة.

يختلف المحللون والسياسيون حول تعريف هذا النوع من الإرهاب لكنهم يتفقون على أنه نوع من التهديد باستعمال العنف أو الحرمان من الوظيفة أو التأثير سلبا على مصدر الرزق أو الأمن الشخصي بصورة عامة بهدف الحيلولة دون التعبير عن رأي أو موقف أو تأييد أو معارضة رأي أو موقف. تتعدد أشكال التهديد وتتنوع ، وقد تكون مستترة أو صريحة وقد تصدر عن حكومات أو أحزاب أو أشخاص أو جماعات. المهم أن يشعر المرء أنه تحت ضغط من أي نوع كان يمنعه من حريته في التعبير عما يجول في خاطره من أفكار ويضعه تحت شعور التهديد فيما إذا عبر عن نفسه. وبهذا يعيش المرء حبيس أفكاره وآرائه التي تعبر عن قراءته للواقع الذي يعيشه مما يجعل من نفسه رقيبا على ذاته ومحاسبا لها قبل

أن يحاسبه الآخرون . أنه موقف من أبشع المواقف التي يمكن أن يتخذها الإنسان ضد نفسه .

هذا الإرهاب خطير جدا وقد يكون أخطر من ذلك الإرهاب الجسدي الذي تتحدث عنه الدول وتتبادل حوله الاتهامات . أنه يعمل على عرقلة النشاط الفكري والتفاعل ويعمل على توجيه المفكرين نحو قناة معينة أو طريق فكري محدد . وهذا إرهاب منتشر في كل بقاع الأرض ويمارس في كثير من الأحيان تحت شعارات الحرية والمصلحة العامة وما شابه ذلك ، ومن شأنه أن يؤثر بطريقة سلبية على تحقيق الذات والشعور بالحرية الحقيقية التي يمتلك معها الإنسان نفسه ، ويدفعه نحو حالة من الاغتراب تفقده نفسه وشعوره بذاته وتحوله إلى أداة بأيدي الغير . ومن المحتمل أن يؤدي إلى تراكم الشعور بالضغط والوعي به مما يؤدي إلى زعزعة الاستقرار في المجتمع أو الدولة مما قد ينتهي إلى صراع يلحق الأضرار بالجميع . فقد تعلمنا من التاريخ أن محاولات إفقاد المرء ذاته أدت إلى عواقب وخيمة على الكابت والمكبوت .

من الواضح أن الإسلام لا يؤمن بالإرهاب الفكري كوسيلة لسيادة الإسلام لأنه أصلاً لا يؤمن بكبت حرية الإنسان ولا بإجباره على اعتناق الإسلام ، ولا يطلب منه أن يكون منافقا . وقد أوضح القرآن الكريم عبر مخاطبة الرسول عليه السلام قائلا : "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين". [60] لم يطلب سبحانه من رسوله أن يستعمل التهديد أو يتآمر أو يحضر "المقالب" و المثالب لمن لا يريدون الاستماع إليه وتلبية الدعوة . السبيل إلى هداية الناس هو جدل وإنما ليس تصادميا، بل جدل يعتمد على الحكمة والموعظة لأن هدفه هو إقناع الناس وليس تخويفهم أو إدخال الرعب إلى قلوبهم مما يدفعهم إلى التظاهر بالإيمان . وقد أكد القرآن هذا

التوجه الإسلامي في تعامل الرسول مع المسلمين حيث قال :"فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ...." [61] يضع القرآن بهذا نهجا هو نهج اللين واللطف واحترام الغير لأن هذا هو النهج الصحيح الذي يجمع الناس. أما النهج المتناقض فقد يبدو ناجحا إلى حين ، وإذا توفرت الفرص للناس الذين يمارس ضدهم القهر والإهاب فإنهم سرعان ما يقلبون الأمور وتتدهور الأوضاع. والمسلمون ملزمون بهذا الأمر وهم يرتبون أوضاعهم دون أن يفسحوا المجال لقهر ينفجر في وجوههم أو تآمر قد يجمع الأعداء ضدهم.

بدا هذا التوجه الإسلامي واضحا أيضا في التعامل مع أهل الكتاب. قال تعالى : "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون". [62] لم يهدد القرآن ولم يتوعد ولم يرعب ، واللغة هي لغة دعوة وليست لغة عضلات. ما دام هناك مجال للحوار والجدل بدون عسكرة وجمع قوى في مواجهة المسلمين فإن الأمر يبقى ضمن معايير الحرية التي تحافظ على حرية الاختيار لكل إنسان. وفي التأكيد على ذلك قال تعالى : " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون". [63] واضح هنا أن الخروج عن الجدل بالتي هي أحسن مرتبط بالظلم الذي يمارسه أهل الكتاب وليس بالدين الذي ينتهجونه. والظلم في الإسلام لا يواجَه بالدسائس والمؤامرات والكبت والقهر وإنما يواجَه بردع بيّن يحول دون وجود معسكر خفي داخل صفوف المسلمين ويعمل على هلاك الأمة.

لهذا كان الإسلام شديداً جداً على المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون العداء. وقد أوضح سبحانه خطر هؤلاء على المسلمين في قوله حول خروجهم للقتال: " لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين". [64] وتابع سبحانه قائلا: " ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون." [65] ولهذا: "وعد الله المنافقين والمنفقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم". [66] والآيات حول المنافقين كثيرة.

من هذا نستدل أن الإسلام ليس فقط ضد الإرهاب الفكري حرصاً على حرية الإنسان في الاختيار ، وإنما حرصاً على تماسك الأمة الإسلامية أيضا ومحافظة على أمنها. فالإرهاب الفكري يولد أعداء يجدون في العمل السري بديلا لما حرموا منه وهو التعبير علناً وبوضوح عن آرائهم ومواقفهم. من خلال نشاطاتهم ، قد يفتن المقهورون بعض المسلمين وقد يؤثرون على توجهاتهم وآرائهم واستعداداتهم للدفاع عن الأمة ، بينما وجود الآراء المتعددة يتيح المجال أمام المسلمين لمناقشتها علنا وتنفيذها وتقديم الحجج ضدها مما لذلك من وقع إقناعي. الإسلام ينهج نهج الإقناع وليس الإجبار والقمع والتهديد والوعيد. ولذلك فإن الإرهاب الفكري مرفوض من حيث أتى وبغض النظر عمن يمارسه ، ومن واجب المسلمين أن يثبتوا التعامل الحسن والحكمة والموعظة كنهج بين الأشخاص وبين الشعوب والأمم.

الإسلام لا يقف ضد الإنسان ولا يضعه في موقف يقف فيه ضد نفسه ويمارس فيه القمع الذاتي والتستر على آرائه. هذا موقف يميز الإسلام عن أنظمة حكم كثيرة منها من يدعي محاربة الإرهاب الفكري، لكن ذلك الإرهاب الذي يمارسه الآخرون

فقط. كثيرة هي الأنظمة التي تقيس الأمور بمقاييس متعددة وذلك حسب الحالة وحسب الجهة المعنية بحيث أن ما يشكل بالنسبة لها إرهابا في حالة معينة لا يشكل إرهابا في حالة أخرى ، وأن ما يمكن وصفه بممارسة إرهابية بالنسبة لجهة معينة لا يشكل إرهابا بالنسبة لجهة أخرى. للإسلام مقياس واضح ينطبق على الجميع بدون تحيز أو مواربة أو خداع. ما ينطبق على موقف ينطبق على كل المواقف ، وما ينطبق على جهة ينطبق على كل الجهات.

الهوامش

1- الشورى، (24) .
2- ص، (27) .
3- آل عمران، (191) .
4- ص، (75-85) .
5- الأعراف، (14-17) .
6- الإسراء، (62-65) .
7- طه، (123-124) .
8- محمد، (3) .
9- الأنبياء، (18) .
10- آل عمران، (190) .
11- آل عمران، (7) .
12- الرعد، (19) .
13- يونس، (39) .
14- فصلت، (53) .
15- يونس، (101) .
16- يونس، (24) .
17- البقرة، (111) .
18- النمل، (64) .
19- القصص، (75) .
20- المؤمنون، (117) .
21- النساء، (174) .
22- الإسراء، (81) .

23- الكهف، (56) .

24- البقرة، (35) .

25- طه، (117) .

26- طه، (120-121) .

27- الأعراف، (179) .

28- البقرة، (159) .

29- البقرة، (174) .

30- البقرة، (164) .

31- الحج، (40) .

32- آل عمران، (160)

33- عائشة عبد الرحمن ، **القرآن وقضايا الإنسان** ، ص (96) .

34- زينب رضوان ، **النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي** ، ط (1) ، ص(114) .

35- **م س** ، ص(116) .

36- **م س** ، ص(99) .

37- العنكبوت، (46) .

38- آل عمران، (64) .

39- الأحقاف، (4) .

40- البقرة، (256) .

41- سورة الكافرون .

42- الأنعام، (33-35) .

43- يونس، (99) .

44- آل عمران، (20) .

45- الشورى، (48) .

46- عبد الحميد أبو سليمان ، **أزمة العقل السليم** ، ص (**141**) .

47- عبد القادر عودة ، **الإسلام وأوضاعنا السياسية** ، ص (**268**) .

48- الممتحنة، (**8**) .

49- التوبة، (**6**) .

50- المائدة، (**40**) .

51- سميح الزين ، **الإسلام وأيديولوجية الإنسان** ، ص (**12**) .

52- **م س** ، ص (**13**) .

53- الأحقاف، (**19**) .

54- الأنعام، (**132**) .

55- المائدة، (**87**) .

56- البقرة، (**172**) .

57- المعارج، (**24-25**) .

58- التوبة، (**34**) .

59- مصطفى كمال وصفي ، **النظم الإسلامية الأساسية** ، ص (**27**) .

60- النحل، (**125**) .

61- آل عمران، (**159**) .

62- آل عمران، (**64**) .

63- العنكبوت، (**46**) .

64- التوبة، (**48**) .

65- التوبة، (**49-50**) .

66- التوبة، (**68**) .